من أحاديث المذياع

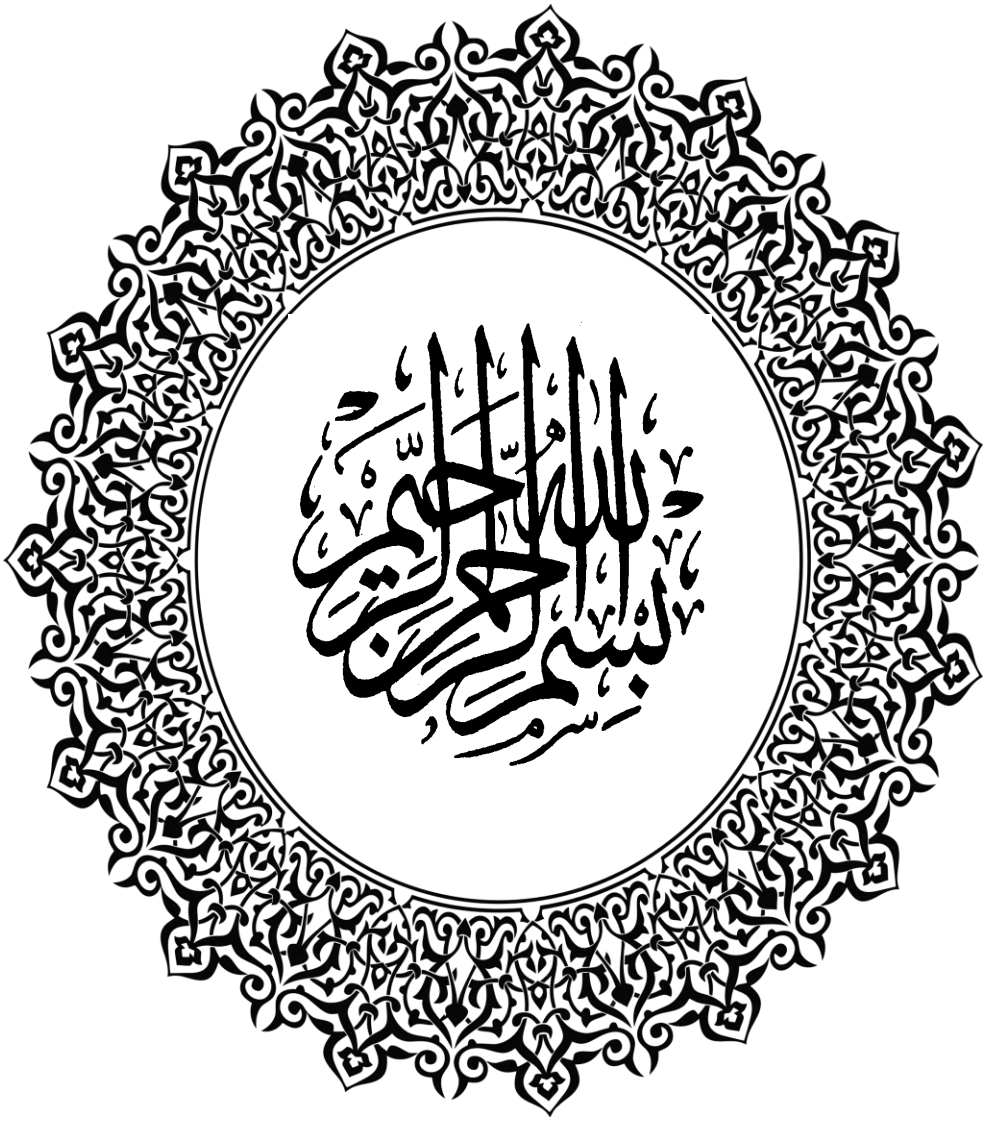
بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

من أحاديث المذياع

لفضيلة الدكتور الشيخ

محمد عبد الله دراز

(ت ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م)

عضو هيئة كبار العلماء

الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء
تليفون: ٠٢٢٥٩٣٩٠٤٦
فاكس: ٠٢٢٥٩٣٩٤٦
البريد الإلكترونى:
SeniorsCouncil@alazhar.eg
الموقع الإلكترونى: www.azhar.eg
العنوان:
ش الأزهر – أمام مسجد
سيدنا الإمام الحسين – القاهرة

*****

فهرست الهيئة المصرية العامة لدار الكتب
والوثائق القومية:
من أحاديث المذياع
د/ محمد عبد الله دراز
ص: ٥ ,١٧ × ٢٥ سم
عدد الصفحات: ٢٦٠

الطبعة الأولى
لهيئة كبار العلماء
١٤٤١هـ / ٢٠٢٠ م
متعهد الطبع:
مجمع مطابع الأزهر الشريف

تليفون: ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧
فاكس: ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

****

تصميم الغلاف:
أ/ إسماعيل عبده محمد علي
رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٨٢٢٦

افتتاحية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسولِ اللهِ، وآلِه وصحبِه ومَن والاه...

وبعد:

فإن مركزَ اتزانِ الكرةِ الأرضيةِ ـ جغرافيًّا وفكريًّا ومجتمعيًّا ـ هو العالمُ العربيُّ والإسلاميُّ؛ الذي يستندُ إلى (**مصر الأزهر**) وبها قِوامُه؛ يأخذُ منها ويتلقى عنها؛ جيلاً وَراءَ جيلٍ.

وبريادة فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخِ الأزهرِ وتوجيهاته؛ **يقوم الأزهر الشريف** بأداء واجبه من خلال منهاجه الوسطي الأصيلِ، وعالميةِ رسالتِه وعِلميتها؛ فيعمل على:

- إنارةِ العقولِ وَهِدَايَتِهَا، والعملِ على رقيِّها ويقظتِها.
- وقايةِ المجتمعاتِ من انحرافِ الأفكارِ وتشددها، وباطلِ الآراءِ وساقِطِها، ومرذولِ العادات ودخيلِها.
- وقد وسعت وسطيته وعالمية رسالته: تنوعَ الفُهومِ، واختلافَ العاداتِ، وتعدُّدَ الثقافاتِ؛ وصار ما تُصْدِرُهُ أرضُ الكنانةِ محطَّ الأنظارِ، ومبعثَ القدوةِ والاحتذاءِ، وبخاصة فيما يمسُّ الشرعَ الشريفَ.

وتأتي هيئةُ كبارِ العلماءِ وهي قمةُ الجهازِ العلمي في الأزهر الشريف؛ لتقوم بدورها في هذا السبيل، مِن:

- تجليةِ صحيح الدين، وبيان وسطيته واعتداله: عقيدة وشريعة وأخلاقًا.
- تصحيحِ المفاهيم، وردّ الشبهات، وكشفِ عوارِ الأفكارِ المنحرفةِ والمتطرفةِ.
- معالجةِ قضايا العصر ومشكلاته.
- تلبيةِ حاجات المجتمع، وإجابة تساؤلاته.
- ترسيخِ قيم التعايش والمواطنة، ودعم رفعة الأوطان ورُقيِّها.

ويتجلى طرف من ذلك في هذه الإصدارات للسادة العلماء الأجلاء؛ أعضاءِ الهيئة- ومَن في درجتهم- قدامى ومعاصرين.

والأحاديث التي بين أيدينا هي مما ألقاه المغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز عضو هيئة كبار العلماء، عبر "الأثير" منذ بداية القرن العشرين الميلادي، ثم خرجت في كتاب عام ١٩٦٥م -بعد وفاته- بعنوان "في الدين والأخلاق"، وبعدها بأعوام خرجت في طبعة جديدة حملت عنوان "نخبة الأزهار وروضة الأفكار"، وفي طبعتنا هذه اخترنا عنوانًا - يدل دلالة مباشرة على المضمون - هو "من أحاديث المذياع"، نسأل الله تعالى أن يجعلها في موازين حسنات كل من أسهم في ظهورها والانتفاع بها، وعلى الله قصد السبيل.

وبالله تعالى التوفيق

أ.د/ صلاح محمود العادلي

أمين عام الهيئة

الشيخ محمد عبد الله دراز

١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م - ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م

هو العالم الجليل المتكلم المحدِّث المُفسِّر الأديب الفقيه الشَّيخ العلامة محمد بن عبد الله بن محمد بن حسين دراز الأزهري -رحمه الله تعالى-.

ولد الشيخ محمد عبد الله دراز في قرية (محلة دياي) التابعة لمحافظة كفر الشيخ في يوم ١٠جمادى الأولى ١٣١٢هـ/ ٨ نوفمبر ١٨٩٤م، في بيت معروف بالتقوى والعلم والصلاح، حيث والده الشيخ عبد الله دراز الفقيه اللغوي المعروف الذي قدَّم شروحًا لكتاب الموافقات للشاطبي، والذي عهد إليه الإمام محمد عبده بمهمة الإشراف على المعهد الأزهري الجديد بالإسكندرية اطمئنانًا إلى علمه وكفاءته.

نشأ الشيخ محمد عبد الله دراز في أسرة ذات علم ومعرفة وقد قيل إن لها قرابة خاصة في المغرب العربي ربما لانتساب الأسرة تقليديًا إلى المذهب المالكي؛ فقد شرح الشيخ الوالد عبد الله دراز كتاب الموافقات لفقيه الأندلس أبي إسحاق الشاطبي[١]، وحقق دراز الابن الكتاب، ثم كتب دراسة عن كتاب الاعتصام للشاطبي أيضًا، وحاول توليد أفكار الاعتصام وتجديدها في كتابه الميزان بين السنة والبدعة والذي توفي قبل إكماله[٢].

---

(١) ينظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية١/ ٢٣١.

(٢) ينظر: مقدمة كتاب زاد المسلم للدين والحياة، دار القلم، الكويت، (د.ط)، (د.ت)، ص١٢، ١٣.

ظهرت علامات النبوغ والتفوق علي الشيخ محمد عبد الله دراز منذ صغره؛ فحفظ القرآن الكريم وجوَّده وهو دون العاشرة من عمره، وتفوق على أقرانه في مجالات العلوم التي تفتحت عيناه عليها في بيت والده، يقول الدكتور محمد رجب البيومي (ت ٢٠١١ م) عنه: «وسرعان ما تفتحت عينه على زملاء أبيه يغشون منزله كل ليلة لدراسة كتب العلم، والحديث في مسائل الإصلاح الديني، وكان الوالد يأخذ منزله بآداب التقوى، يؤم أهله في صلاتي العشاء والفجر، ويقرأ صحيح البخاري في ليالي رمضان، ويسهر على تثقيف أبنائه وتعويدهم على سنن الخير من صلاة وصيام وزكاة وحب المعروف والبعد عن الدنايا»(١).

ومن الأشياء التي تعلمها دراز من والده شغفه وحبه لكتاب الله تعالى فأخذ عنه ضرورة التلاوة لستة أجزاء منه كل يوم، وما ترك هذه العبادة يومًا من الأيام، وما كنت تراه إلا قارئًا للقرآن، وقراءة عالم مفكر مثله لهذا الورد اليومي لابد أن تفتح عليه بما يضيء بصيرته، ويمده بأوفر الزاد وأشهاه (٢).

التحق الشيخ محمد عبد الله دراز بالمرحلة الابتدائية، وكان قد استظهر بعض المتون العلمية المعروفة في وقته، ثم انتقل بعد ذلك إلى الإسكندرية في أوائل عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م فالتحق بمعهدها، وكان هذا المعهد في بداية نشأته، وكان بصحبة والده والذي قد وقع عليه الاختيار من قبل أستاذه الإمام محمد عبده لتأسيس الدراسة الأزهرية في هذه المحافظة، وكان محمد عبد الله دراز من أوائل

---

(١) ينظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ٢/ ٢٤٢.

(٢) ينظر: المرجع السابق ٢/ ٢٤٢؛ ومقدمة كتاب النبأ العظيم، ص١٤ لمحمد عبد الله دراز.

الطلبة المنتسبين إلى هذا المعهد، ونال منه الشهادة الابتدائية بعد أربع سنوات، ثم انتقل الشيخ محمد عبد الله دراز مع والده إلى طنطا ليدرس بالجامع الأحمدي، ونال منه الشهادة الثانوية عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م.

التحق بعدها بالأزهر الشريف في القسم العالي، وتلقى العلم على كبار العلماء منهم: الشيخ إبراهيم الجبالي، والشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ عبد المجيد اللبان، والشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمود أبو دقيقة، والشيخ على محفوظ، والشيخ على سرور الزنكلوني وكثير غيرهم(١).

وكان من بين زملائه: الشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ حسنين محمد مخلوف، والشيخ عبد الوهاب خلاف، وكثير غيرهم(٢).

وحصل على الشهادة العالمية (الدكتوراه)، وكان أول المتخرجين سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م مما جعله أهلًا لأن يقوم بالتدريس في الجامع الأزهر الشريف في نفس عام تخرجه (٣).

وفي نفس الفترة وهو في سن الثانية والعشرين بدأ الشيخ دراز في الالتحاق ببعض الدروس على حسابه الخاص لتعلم اللغة الفرنسية حتى نجح في إتقان تلك

---

(١) ينظر: معجم المؤلفين١١/١٣؛ وأسانيد المصريين ص ٦٤٥.

(٢) ينظر: معجم المؤلفين ٦/٢٢١.

(٣) ينظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين٢/٢٤٢.

اللغة في مدة ثلاث سنوات وكان ذلك في سنة ١٩١٩م[١].

بالإضافة إلى عمله بالتدريس في الجامع الأزهر لمدة تزيد على عشر سنوات فقد اختير أيضًا للتدريس بالقسم العربي بالأزهر الشريف سنة ١٩٢٨م، ثم لم يمض إلا عام واحد حتى كُلف بالتدريس بقسم الدراسات المتخصصة سنة ١٩٢٩م، ثم في الكليات الأزهرية الناشئة سنة ١٩٣٠م مع نخبة من أساتذته الكبار أمثال الشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ إبراهيم الجبالي، وغيرهم بحيث لم يكن دراز بأقل منهم كفاءة واقتدارًا على الرغم من حداثة سنه، بل كان أقربهم إلى قلوب الطلاب لحسن تواضعه وقرب اتصاله بشباب لا يزيد عنهم في الزمن إلا أعوامًا قليلة[٢].

استمر في التدريس وألف مجموعة من الكتب المهمة في ذلك التوقيت أمثال كتاب (المختار من كنوز السنة) في تدريس مادتي التفسير والحديث بكلية أصول الدين سنة ١٩٣٢م، وكتاب النبأ العظيم في محاضراته في تفسير القرآن الكريم سنة ١٩٣٣م[٣].

قام بأداء فريضة الحج سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦ م وفور عودته تم ترشيحه من قبل الأزهر ليذهب في بعثة علمية دراسية إلى جامعات أوربا برفقة ستة من زملائه سنة ١٩٣٦م، وقد قال الشيخ دراز عن هذه البعثة: «هي أول البعثات في هذا القرن إلى جامعات أوربا مؤلفة من سبعة من شباب الأساتذة المدرسين في الكليات؛ أوفد

---

(١) ينظر: المرجع السابق٢/٢٤٢.

(٢) ينظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين٢/٢٤٣.

(٣) أشار الشيخ محمد عبد الله دراز إلى ذلك في مقدمة كتابه: النبأ العظيم، تقديم عبد العظيم المطعني، دار القلم، الكويت، ط٩، ٢٠٠٥م، ص٣٥؛ وكتابه دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٠، ١٩٩٨م، ص٢٠٧.

أحدهم إلى ألمانيا، واثنين منهم إلى انجلترا، وأربعة إلى فرنسا، وكان لكاتب هذه السطور شرف عضوية هذه البعثة الفرنسية»[١].

واستمر في تلك البعثة لمدة عشر سنوات حصل في نهايتها على الدكتوراه من جامعة السربون بفرنسا عن رسالته «دستور الأخلاق في القرآن الكريم»[٢].

وفي عام ١٩٤٢م استطاع دراز أن يلتحق بالسربون مرة ثانية وبدأت اتصالاته بالأساتذة، وعمل جاهدًا حتى يحصل على الموافقة على موضوع رسالته قبل البدء في إنشائها[٣].

وظل في فرنسا حتى استطاع أن يناقش رسالته في إحدى قاعات السربون في يوم ١٥/١٢/ ١٩٤٧م، وحصل فيها على مرتبة الشرف الأولى[٤].

ولما حقق الشيخ دراز مهمته الحضارية التي تحمل بسببها هو وعائلته ويلات الحرب العالمية الثانية، رجع إلى بلاده ليضطلع بمهام ووظائف كثيرة، فاشتغل وانتدب للتدريس علم تاريخ الأديان بجامعة القاهرة في مارس ١٩٤٨م، ولتدريس علم الأخلاق في دار العلوم، ولتدريس التفسير في كلية اللغة العربية.

---

(١) ينظر: حصاد قلم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٤٧.

(٢) ينظر: دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، محمد عبد الله دراز، لأحمد مصطفى فضلية: ص٥٧.

(٣) ينظر: حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز، لأحمد مصطفى فضلية: دار القلم، الكويت، ط١، ٢٠٠٥م، ص٣٩.

(٤) ينظر: الأعلام ج٦، ٢٤٦.

عضويته بهيئة كبار العلماء:

نال الدكتور محمد عبد الله دراز عضوية جماعة كبار العلماء بالأمر الملكي رقم (٤٣) لسنة ١٩٤٩م، وشمل القرار كلًا من الشيخ حسنين محمد مخلوف، والشيخ عبد الرحمن حسن، والشيخ الحسيني سلطان، والشيخ محمود أحمد الغمراوي، والشيخ عبد العزيز مصطفى محمد المراغي، والشيخ محمد نور الحسن زين العابدين[١].

كما أسندت إليه الكثير من أعمال اللجان منها: اللجنة العليا لسياسة التعليم، واللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر، والمجلس الأعلى للإذاعة الوطنية التي كان يخصها بحصص إذاعية في تفسير القرآن ودراسة أخلاقه الربانية[٢].

هذا وقد مثل الشيخ دراز الأزهر في العديد من المؤتمرات الدولية؛ فمنها كلمته عن السلام والإسلام في مؤتمر الأديان بباريس ١٩٣٩م[٣]، ومثل الأزهر في مؤتمر الحقوق الدولية في باريس سنة ١٩٥١م، ببحثه عن الربا، وكانت آخر المؤتمرات

---

(١) الوقائع المصرية العدد (١٥٠) أول ديسمبر ١٩٤٩م؛ والأعلام٦/٢٤٦.

(٢) ينظر: معجم المؤلفين ١٠/٢١٢، ٢١٣.

(٣) ينظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين٢/٢٤٣.،

التي مثل فيها الأزهر مؤتمر الأديان العالمي في لاهور بباكستان سنة ١٩٥٨م، وكان بحثه الذي قدمه حول موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها(١).

أما عن مواقفه الوطنية فقد كان الشيخ محمد عبد الله دراز من المهتمين بقضايا وطنهم فله مواقف مشهودة في هذا الإطار، منها أنه قد طاف على السفارات الأجنبية في مصر إبان ثورة ١٩١٩م محاضرًا باللغة الفرنسية وشارحًا قضية بلاده أمام ممثلي الدول الغربية(٢).

ولم يكتف بهذا الأمر بل تعداه إلى الكتابة الصحفية باللغة الفرنسية في جريدة الطان الفرنسية ليكتب فيها عن أخطاء الاحتلال في بلاده، وملخصًا ما يدور في الجامع الأزهر الشريف من خطب سياسية كما أشار عليه الشيخ محمد عبد اللطيف دراز(٣)، وكان في ذلك الوقت من رجال الثورة البارزين في محيط القاهرة(٤).

---

(١) ينظر: حصاد قلم ص٣٦٣.

(٢) ينظر: السيرة الذاتية بقلم محسن دراز من كتاب محمد عبد الله دراز، دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، لأحمد مصطفى فضلية ص١٤.

(٣) ينظر: النهضة الإسلامية، ٢/٢٤٢.

(٤) ينظر: المرجع السابق٢/٢٤٢.

كما عُرف عنه أيضًا تأييده لإلغاء المعاهدة المصرية الإنجليزية عام ١٩٥١م، وكان من ضمن الكتيبة الأزهرية التي تكونت لمقاومة القوات البريطانية بمنطقة قناة السويس(١).

كما قدم مذكرة سنة ١٩٥٢م إلى القصر الملكي لفت فيها نظر الملك فاروق إلى تدهور صورته الملكية، وإلى الأثر السيء الذي نتج عن العبث؛ الذي اندفع إليه القصر والوفد –حزب النحاس– للإضرار بهيبة الأزهر؛ الذي كان قد أدخلوه في الرهان السياسي، إلا أن ذلك كان بعد فوات الأوان؛ إذ حدث بعدها حريق القاهرة، ثم ثورة ١٩٥٢م، ومغادرة فاروق مصر متوجهًا إلى منفاه(٢).

ومن الاهتمام بقضايا الوطن إلى الاهتمام بقضايا الأمة؛ فعندما كان في فرنسا أعلن تأييده لتحرير الدول العربية: فلسطين، والجزائر، والمغرب، وخالط ممثلي هذه الحركات(٣).

(١) ينظر: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته، ص٢٤٢.

(٢) ينظر: حصاد قلم ص١٧.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص١٧.

عطاؤه العلمي:

لقد تتلمذ على يد العلامة الكبير الدكتور محمد عبد الله دراز العديد من التلاميذ منهم: السيد محمد بدوي، وعبد العظيم المطعني، وعبد الصبور شاهين وغيرهم كثير[١].

أما عن مؤلفاته فقد تنوعت وتعددت، وذلك على النحو التالى:

١- دستور الأخلاق في القرآن دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن.

٢- مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن.

٣-النبأ العظيم[٢].

٤- الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان.

٥- تاريخ آداب اللغة العربية.

٦- منهل العرفان في تقويم البلدان.

٧- بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان.

٨- تفسير آيات الأحكام.

---

(١) ينظر: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، ص٢٤٠، ٢٤١.

(٢) حصاد قلم ص١٦، ١٧.

٩- الربا في نظر القانون الإسلامي.

١٠- مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام.

١١- الصوم تربية وجهاد.

١٢- المسئولية في الإسلام.

١٣- دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية.

١٤- الميزان بين السنة والبدعة.

١٥- زاد المسلم للدين والحياة.

١٦- المختار من كنوز السنة شرح أربعين حديثًا.

١٧- حصاد قلم.[1]

(١) معجم المؤلفين، ١٠/٢١٣.

وفاته:

لما مثل الشيخ محمد عبد الله دراز الأزهر في لاهور بباكستان في مؤتمر الأديان كان الكثيرون من تلاميذه ومحبيه ينتظرون عودته إلى مصر تشوقًا إلى علمه ورؤيته، ولكن شاء الله أن تكون آخر محاضرة له، إذ لبى نداء ربه بسكتة قلبية مفاجئة وذلك في يناير ١٩٥٨ م أثناء انعقاد المؤتمر وقبل أن يلقي كلمته.[١]

وبعد أن عاد جثمانه إلى أرض مصر على متن طائرة، شيعت جنازته بعد أن صُلِّي عليه في الجامع الأزهر الشريف وكان في مقدمة مشيعيه علماء الأزهر، وعارفو فضله من الشعب المصري، وكبار الشخصيات من مصر والعالم الإسلامي في موكب رهيب تعطلت فيه حركة المرور من الأزهر إلى أرض المدفن؛ إذ حين وصول أوائل مشيعيه إلى أرض المدفن كان آخرهم يبدأ سيره من ساحة الجامع الأزهر[٢].

ونعاه كثير من علماء العالم كما في قول الشيخ محمود شلتوت عنه: «لقد مات مشعل النور الذي أطفأ مشاعل الجهل»[٣].

وقال عنه الشيخ عبد الحليم محمود: «لقد فقدنا اليوم آخر عالم من رعيل كبار العلماء الذين تخرجوا من الأزهر، ليكن الله في عوننا وفي حماية الإسلام»[٤].

رحمه الله تعالى ورفع درجته في عليين

---

(١) ينظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ٢/ ٢٤٥.

(٢) ينظر: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، ص١٧٣، ١٧٤ أحمد مصطفى فضلية:.

(٣) المرجع السابق، ص١٧٤.

(٤) ينظر: المرجع السابق، ص١٨، أسانيد المصريين ص٦٤٩.

تصدير الطبعة الأولى

بقلم الدكتور السيد محمد بدوي[1]

هذه نظرات في الدين والأخلاق نقدمها لشباب هذا الجيل، الذين لم تتح لهم فرصة الاستمتاع بها مذاعة على الأثير، فمن حق الشباب علينا – وهم ذخيرة الوطن وأمله – أن نزودهم بهذه المختارات الفريدة التي تقوي في أنفسهم الإيمان، وتدعم في ضميرهم أهم الأخلاق، وتشحذ إرادتهم للقيام بجلائل الأعمال.

ومن أجدر بأن نأخذ عنه هذه الدروس الممتعة، والأفكار الحية النابضة والمثل العليا، من أستاذ جليل من السلف الصالح، كرس حياته للدرس والتدريس، وجمع في توازن عجيب بين علوم الدين ومعارف الدنيا، واستطاع أن يجمع هذه العلوم والمعارف في ذهنه وعقله المتفتح المستنير، وأخرجها لنا مصفاة من الشوائب، محلاة بذلك الأسلوب الرصين الذي يبرز الفكرة في سهولة ويسر، فتأخذ طريقها إلى العقول والأفئدة.

ذلكم هو العالم الجليل المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز، عضو جماعة كبار العلماء[2]، آتاه الله تعالى الحظ الأوفر في علوم الإسلام، فكان فيها العلم الذي يشار

---

(١) كان أستاذ علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية ومن روَّاده ومؤسسيه الأوائل في مصر، وكانت له صلة وطيدة بالدكتور محمد عبد الله دراز وكان صهرًا له، ونشر له بعض كتبه، وقد كتب هذا التصدير في ٢٩ من ذي القعدة ١٣٨٤م – ٣١من مارس ١٩٦٥م، توفي رحمه الله في ٢٠٠٥/١١/٢٩م عن تسعة وثمانين عامًا.

(٢) سميت بذلك في عهد الشيخ المراغي بعد أن كانت باسم "هيئة كبار العلماء"، ثم عادت عام ٢٠١٢م بهذا الاسم في عهد فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر.

إليه. وأوتي مثل هذا الحظ من علم أوربا، ولكن لم يبهره زخرف المدنية الغربية عن الثروة الروحية التي اشتملت عليها الحقائق الإسلامية.

ولد-عليه رحمة الله-في قرية «محلة دياي» بمحافظة كفر الشيخ في عام ١٨٩٤م وانتسب إلى معهد الإسكندرية الديني في عام ١٩٠٠م، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية في عام ١٩١٢م، وعلى شهادة العالمية في عام ١٩١٦م ثم تعلم اللغة الفرنسية بمجهوده الخاص، ولم يكن إقبال على تعلم هذه اللغة حبًا في المظهر، بل ليستخدمها فيما يعود على قضية بلاده ودينه بالنفع، فكان إبان ثورة ١٩١٩م يطوف مع الشباب على السفارات الأجنبية ليعرض قضية بلاده، كما كان يدافع عن الإسلام ضد مهاجميه في جريدة «الطان» الفرنسية.

وفي عام ١٩٢٨م، اختير للتدريس بالقسم العالي بالأزهر، ثم بقسم التخصص عام ١٩٢٩م، ثم بكلية أصول الدين عام ١٩٣٠م.

وفي عام ١٩٣٩م سافر إلى فرنسا في بعثة أزهرية. واشتغل للتحضير لدرجة الدكتوراه فكتب رسالتين عن "التعريف بالقرآن" وعن "الأخلاق في القرآن" نال بهما دكتوراه الدولة من السوربون بمرتبة الشرف الممتازة في عام ١٩٤٧م.

وعلى إثر عودته إلى الوطن انتدب لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء في عام ١٩٤٩م، ثم ندب لتدريس التفسير بكلية

(دار العلوم)، واللغة العربية بالأزهر، وتدريس فلسفة الأخلاق في كلية اللغة العربية.

وفي عام ١٩٥٣م، اختير عضوًا في اللجنة العليا لسياسة التعليم، كما اختير عضوًا في المجلس الأعلى للإذاعة. وفي اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر، إلى جانب اختياره في المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلًا لمصر والأزهر.

وكانت آخر رحلة له؛ رحلته إلى باكستان لحضور المؤتمر، الإسلامي في مدينة «لاهور» في يناير عام ١٩٥٨، وقد ألقى هناك بحثًا عن موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها، ثم وافاه الأجل المحتوم أثناء انعقاد المؤتمر، ففقد العالم الإسلامي بوفاته مثلًا فاضلًا للعالم الأزهري، الغيور على دينه، المحافظ على كرامته، المصون في مظهره وسمعته، الداعي إلى صراط ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد عرف عنه -رحمه الله- أنه كان يقرأ كل يوم سدس القرآن، وما ترك هذه العادة يومًا واحدًا حتى في إبَّان محنة الحرب التي عاصرها في فرنسا وما كنت تراه إذا اختلى بنفسه إلا مصليًا أو قارئًا للقرآن.

وإذا كانت إقامته الطويلة في الخارج قد مكنته من علوم الغرب ومعارفه ومناهج البحث العلمي، فإنها مع ذلك لم تصرفه لحظة واحدة عن دينه، ولم تغير من خلقه، بل قد ازداد استمساكًا بدينه، فزاد بذلك وقارًا وجلالًا.

ومن آثاره الدينية والفلسفية:

النبأ العظيم، وهو نظرات جديدة في القرآن.

والمختار في الحديث.

ونظرات في الإسلام.

والصوم.

والمسئولية في الإسلام.

وكلمات في مبادئ والأخلاق.

وتفسير بعض سور وأجزاء من القرآن الكريم.

وكتاب الدين، وهو بحوث تمهيدية في نشأة الأديان.

ومن بحوثه باللغتين العربية والفرنسية:

مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام.

والربا في نظر القانون الإسلامي.

والأزهر الجامعة القديمة والحديثة.

أما الأحاديث التي نقدمها في هذا الكتاب فهي مختارة من سلسلة أحاديث إذاعية كانت للأستاذ في فترات منتظمة في المدة من عام ١٩٠٣م-١٩٠٧م، ومن هذه الأحاديث ما يهتم بتفسير حكمة الشريعة والأهداف الخلقية والاجتماعية الكامنة وراء فرض شعائر الصلاة والزكاة والحج، ومنها ما يتصل بشرح آداب القرآن في

المعاملات، وتحديد أساليب القوم الذي يجعل من يستمسك به إنسانًا كاملًا يحقق الخير لنفسه ولوطنه، كما أن من هذه الأحاديث ما كتب في أثناء الاعتداء الثلاثي الغاشم على الوطن في عام ١٩٥٦، وقد أراد بها الأستاذ استثارة الرأي العام ضد هذا العدوان الأثيم، واستنفار الهمم لكي تستبسل في الدفاع عن الحق، وتعبئة جنود العرب تعبئة روحية بالإيمان والتقوى والصلاح والإصلاح، إلى جانب تعبئتهم بالزاد والعتاد والركاب والسلاح.

وقد آثرنا أن نقدم هذه الأحاديث في صورتها الأصلية، دون أن نحاول أي تعديل سواء بالإدماج أو الربط، مما قد يستلزمه طبع كتاب متكامل الفصول، وذلك لما وجدنا ذلك أدعى إلى الاحتفاظ بأصالتها، والحفاظ على رونقها.

ونرجو أن تحظى عند القارئ في أقطار العالم العربي والإسلامي بما هي جديرة به من الاستيعاب وعمق التأمل.

والله نسأل أن يوفقنا جميعًا لما فيه نصرة الحق وإعلاء شأن الإسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

وصلى الله على خير خلقه، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، وبعد:

فإن خير ما تفتتح به الأعمال، وخير ما تستنجح به المقاصد هو التوجه إلى الله العلي القدير، ثناءً عليه بما هو أهله، واستمدادًا للمعونة من قوته، واستلهامًا للرشد من هدايته، وتلك هي الخطوط البارزة في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثناءٌ علي الله، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استعانة بالله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ استرشاد بنور الله.

عند هذه النظرة العابرة يقف أكثر الذين يتلون هذه السورة، أو الذين يستمعون إليها، ولعل كثيرًا منهم لا يدركون من تسميتها إلا أنها تحل المكان الأول في صدر المصحف.

ولكن هلم بنا نلق على هذه السورة الكريمة نظرتين أخريين؛ نظرة في موادها ومقاصدها، مقارنة بمواد القرآن ومقاصده، ونظرة في وجهة خطابها، مقارنة بوجهة الخطاب القرآني، فسنجد لها بذلك شأنًا أهم وأعظم.

ولنبدأ بالنظر في إحصاء المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وفي مدى احتواءِ الفاتحة على هذه المقاصد:

الشئون التي تناولها القرآن –علي تنوعها وكثرتها– نستطيع أن نجملها في أربعة مقاصد، هي في الحقيقة كل مطالب الدين والفلسفة والأخلاق:

مقصدان نظريان هما: معرفة الحق، ومعرفة الخير.

ومقصدان عمليان تثمرهما هاتان المعرفتان إذا قدر لهما أن تثمرا.

فثمرة معرفة الحق هي: تقديس الحق واعتناقه، وثمرة معرفة الخير فعل الخير والتزامه.

المقصد النظري الأساس للقرآن الحكيم، هو تعريفنا بالحقيقة العليا صعودًا بها إليها على معراج الحقائق الأخرى؛ فهو يعرفنا بالله وصفاته عن طريق توجيه أنظارنا إلى آياته في ملكوت السموات والأرض، وفي خلق الإنسان والحيوان والنبات، وفي سير الشمس والقمر والنجوم، وفي تكوين السحاب، وفي تسخير الطير، وفي تصريف الرياح، وفي ظاهرتي الحياة والموت، وفي سائر الظواهر النفسية والكونية، الخارجة عن إرادتنا وعن إرادة الكائنات كلها، والتي لا يستطيع القلب السليم أن يفسر وجودها، ولا بقاءها، ولا تناسقها وتماسكها ووحدة نظامها إلا بوجود قوة عاقلة قديرة مدبرة حكيمة، تقبض على زمام الأمر كله، وتوجه الملايين من الأوضاع الممكنة التي كانت لابد أن تتناوب الكون في كل لحظة لو ترك أمره

لمحض المصادفة والاتفاق، أو لو ترك أمره لقوة عمياءَ صماءَ طائشة لا قلب لها، أو لقوة مخربة مدمرة باطشة لا رحمة لها، أو لقوة عابثة لاهية لاعبة لا هدف لها.

والقرآن حين يرينا صنع الله في ملكوته، لا يقف بنا عند هذه اللوحة العالمية في صورتها الحاضرة، ولكنه يوجه نظرنا إلى طرفي الزمان الكوني، فيطل بنا على صورة العالم في ماضيه وفي مستقبله، وفي بدايته وفي نهايته، كما يوجه نظرنا إلى طرفي الزمان الإنساني، فيرينا صورة من صنع الله في الأفراد والأمم، في ماضيها وفي مستقبلها القريب والبعيد وفي إسعادها وإشقائها، وفي إبقائها وإفنائها، وفي مثوبتها وعقوبتها.

هذه النظرة الشاملة إلى صنع الله في الأنفس والآفاق، هذه المعرفة بالله في مظهري عدله وفضله، في صفتي جلاله وجماله، إذا وقعت موقعها من النفس تقاضتها حتمًا أن تتخذ لها موقفًا عمليًّا تجاه هذه الحقيقة المقدسة العليا، وما ذلك إلا موقف التوقير والخشوع أمام هذا العدل والجلال، وموقف الولاء والحب أمام هذا الفضل والجمال.

فمن عرف الله خشعت له نفسه، واطمأن له قلبه، وذلك هو روح العبادة وجوهرها، فهي الخشوع التام عن طوع واختيار، وعن رضا ومحبة.

هكذا إذن كان الأصل النظري الأول، هو معرفة الله، والأصل العملي الأول الذي يثمره هذا الأصل هو توقير الله.

ومن جملة هذين الأصلين يتألف الجانب الإلهي بعنصريه: النظري والعملي، والقرآن يفصله تفصيلًا، وسورة الفاتحة تجمله إجمالًا في شطرها الأول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، هذه هي المعرفة الأساسية.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ﴾، هذا هو الموقف العملي الذي تثمره تلك المعرفة.

وقبل أن ننتقل إلى الجانب الإنساني الذي يتناوله الشطر الآخر من السورة، يجمل بنا أن نقف وقفة يسيرة أمام هذه الحبات الذرية، التي يتألف منها هذا الجناح الأول من السورة، فتتمتع عقولنا وقلوبنا بتذوق معانيها، واجتلاء جمال مواقعها.

ولنبدأ بهذه الصفات الحسنى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

شذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاثة، في ترتيب بالغ الغاية في الإبداع والإحكام، المبدأ، فالوسطي، فالمعاد، التوحيد فالنبوة فالجزاء. ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ليس إله قبيلة أو شعب، ليس إله خير أو شر، أو نور أو ظلام فحسب، ولكنه رب كل شيء، بارئه ومصوره، منقله في أطواره، مبلغه غايته، ممده بحاجاته، مبتليه أو معافيه.

وبالجملة: مربيه بأنواع التربية الظاهرة والباطنة.

هذا هو التوحيد الخالص، وهذا هو ركن المبدأ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ليس رحمانًا رحيمًا فحسب، ولكن هو الرحمن الرحيم ليس واحدًا من جملة الراحمين، ولكنه هو المصدر الوحيد للرحمة ثم ليس ذا رحمة واحدة، ولكنهما رحمتان مفسرتان في القرآن: رحمة وسعت كل شيء، ورحمة يختص بها من يشاء، رحمة وسعت كل شيء ووسعت الإنسانية جميعها لا أقول وسعتها بنعمة الوجود والحياة والرزق المادي فحسب ولا أقول وسعتها بنعمة الهداية الفطرية وكفى ولكن بنعمة الهداية السماوية نفسها، وذلك بإرسال الرسل إلى كل الأمم: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[1]، ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾[2].

هذه هي الرحمة الأولى الرحمة الأساسية العامة التي هو بها رحمان ممتلئ الخزائن بالرحمة، باسط اليدين بالنعمة، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[3]

ورحمة أخرى خصوصية إضافية نافلة، علاوة يمنحها من يستحقها؛ تلك هي رحمة الاصطفاء والاجتباء، والقيادة والإمامة، والتوفيق والرشاد والمزيد من الفضل؛ ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[4]، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ

---

(١) سورة النحل:٣٦

(٢) سورة فاطر:٢٤

(٣) سورة إبراهيم:٣٤

(٤) سورة الحج:٧٥

رِسَالَتَهُۥ ﴾[١]، ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[٣]، ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[٤]، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٥]، وهذه هي الرحمة التي هو بها رحيم.

على هاتين الرحمتين يقوم ركن النبوات، فهو رحمة عامة للمرسل إليهم، ورحمة خاصة للمرسلين ومن اهتدى بهديهم، وهذا هو الوسط بين المبدأ والمعاد.

وللحديث بقية في شرح هذه الآيات والله المستعان.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة الأنعام:١٢٤

(٢) سورة الشوري:١٣

(٣) سورة محمد:١٧

(٤) سورة فاطر:١

(٥) سورة الشوري:١٢

٢ - بقية نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وصلى الله على خير خلقه، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه.

وبعد: نتابع معًا ما بدأناه في حديثنا السابق عن سورة الفاتحة:

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: إليه وحده ترجع الأمور، وبيده تقرير المصير الأخير؛ يقف الخلق جميعًا بين يديه مسئولون، فيدينهم ويجزيهم بما كانوا يعملون، وهذا هو الركن الثالث والأخير: ركن المعاد والجزاءِ.

عرفنا الآن مغزى هذه الصفات الثلاث ومواقعها فيما بينها، فلننظر إلى مواقعها مما حولها، لنرى كيف وقعت بين قضيتين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. فكانت تأييدًا لما قبلها، تمهيدًا لما بعدها، فمنزلتها من قضية الحمد منزلة البرهان من الدعوى، ومنزلتها من قضية العبادة منزلة القوة المحركة من الحركة المطلوبة.

وفي الحق أنه إذا كان الله وحده هو الذي كل شئ من خلقه، وهو الذي كفل كل شيء وتعهده بالإمداد آنًا فآنًا حتى أبلغه مداه، وإذا كان هو وحده الذي ملك خزائن الرحمة والنعمة كلها، وهو الذي ينفق منها وهو الذي يضاعفها لمن يشاءُ، وإذا كان هو وحده الذي بيده فصل القضاءِ وتقرير المصير، فأي أَحد أَو شيء أحق

منه بنعوت الجمال والجلال؟!، بل أَي أَحد، أو شيء غيره يستحق هذا الثناء والإجلال.

الحمد كله حق مستحق خالصًا ومخلصًا لله، تلك إذن قضية معها برهانها، هذا البرهان الاستقرائي الذي يستقصي مظاهر العظمة والرحمة كلها في الأزمنة الثلاثة- الماضي والحاضر والمستقبل- فيحصرها في يد الله؛ هو في الوقت نفسه قوة دافعة تأخذ بأقطار نفسك وتوجهك إلى غاية عملية معينة، فإن نظرة إلى ماضيك وقد أتى عليك حين من الدهر لم تكن شيئًا مذكورًا، فتعهدك الخلاق في مختلف أطوارك حتى بلغت أشدك، وأصبحت سميعًا، بصيرًا، خصيمًا مبينًا، مستأهلًا لخلافة الأرض، لا بد أن يتقاضاك حق الاعتراف له بالفضل والجميل؛ قيامًا بواجب الوفاء، ونظرة إلى حاضرك وإلى مستقبلك القريب وأنت تتقلب كل آن في رحمته، وتطمع كل آن في المزيد من نعمته، لا شك تثير فيك نحوه باعثة الحب والرجاء، ونظرة إلى مستقبلك البعيد وأنت واقف أمامه في ساحة القضاء، وقد علق مصيرك في كفتي ميزانه، لا بد أن تنفث في روعك مزيجًا من الرغبة والرهبة والاستحياء.

ماذا يكون موقفك إذن من هذه الحقيقة المحيطة الغامرة، التي كلما التفت إلى أمسِك أو إلى يومك أو إلى غدك، لم تر إلا يد جلالها أو يد جمالها.

النتيجة الطبيعية -التي لا تستطيع دفعها عن نفسك بعد هذه المقدمات الثلاث- هي أن يضمحل في عينك كل ما ترى في الوجود من مظاهر زائفة، وظواهر زائلة،

وأن ترتفع بهامتك فوق العالم كله، وأن تتحول كل رغبتك إلى هذا المنبع الأول والوحيد لكل قوة ورحمة.

وهنالك لا يسعك إلا أَن ينطلق لسانك في حب خاشع قائلًا: أيها الحق الجامع المانع، كلي لك كلي؛ لك صلاتي ونسكي، ولك محياي ومماتي، إياك أعبد، ولك وحدك أركع وأسجد، على أنك لو كنت أَوسع أفقًا، وأَيقظ قلبًا، لوجدت نفسك لست وحيدًا في هذا الموقف، لرأَيت العالم كله حولك راكعًا ساجدًا أمام هذه العظمة الباهرة، لا تقل إذن: إياك أعبد، ولكن قل:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وهذه هي النتيجة الحقيقية التي أعلنها القرآن الحكيم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك.

ماذا أقول؟ لا نستعين إلا بك؟ إِني لأَكاد أَسمع من يهمس في أذني همسة يقول لي: أما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فقد فقهناها، وأما ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ففي النفس منها شيءٌ؛ إِذ من ذا الذي يطيق هذا الاستغناءَ الكلي عن معونة الخلق، أَليس الناس كلهم يعين بعضهم بعضًا، ويستعين بعضهم ببعض؟ أَليس التعاون هو أساس الحياة؟ أليس القرآن نفسه يقول: ﴿تَعَاوَنُوا﴾؟

بل أنا أستعين بك، وأنت تستعين بي، ولكن نحن والناس جملة والعالمون كتلة، بمن نستعين وراء طاقاتنا المحدودة وحيلنا المعدودة؟!.

ثم حين أستعين بك وتستعين بي، من ذا الذي يبعث الباعثة في قلبك لمعونتي وفي قلبي لمعونتك؟ ومن ذا ييسر لي ولك وسائل هذه المعونة؟ ومن ذا الذي ينجح هذه المعونة ويؤتيها ثمرتها؟ الله وحده –في الحقيقة وفي النهاية – هو المستعان.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بإجماع هاتين الكلمتين بَطُلَ الشرك كله؛ شرك العبادة لغير الله، وشرك الاستعانة والاستشفاع بما لم يأذن به لله، وباجتماع هاتين الكلمتين بطلت العقائد المتطرفة كلها، بطلت عقيدة الجبر المحض الذي ينكر قدرتنا ومسئولياتنا، وبطلت عقيدة الاختيار المحض الذي يدعي الاستغناء عن معونة ربنا؛ فنحن نعمل ونتوكل، نعبد ونستعين، نعبد أولًا، ونستعين آخرًا، نؤدي واجبنا ثم نطالب بحقوقنا، ألا فليستمع أُولئك الذين لا يفتئون يطالبون بحقوقهم، ولا يبدءون بأداء واجباتهم: إنهم لم يتأدبوا بآداب القرآن، ألا فليصلحوا موقفهم من فاتحة الكتاب، التي يرددونها في صلاتهم كل يوم بضع عشرة مرة على الأقل.

هكذا عرفنا الله بصنعه، في الآفاق وفي أنفسنا، عرفناه فيما صنع وفيما يصنع وفيما سوف يصنع، عرفناه بعقولنا وقلوبنا، ثم توجهنا إليه.

هذا الجانب الإلهي -نظريه وعمليه- يمثل نصف المهمة القرآنية، وقد رأينا كيف جمعته سورة الفاتحة في شطرها الأول.

غير أَن الإنسان ليس كائنًا روحيًّا محضًا، حتى تكون كل رسالته في الحياة أن يتأمل في صنع الله، وأن يمتلئ إعجابًا به، إنه كائن مزدوج؛ عبد الله وسيد للكون، إنه خليفة في الأرض مسئول عن عمله في خلافته، كما هو مسئول عن موقف عبوديته، الله يخلق ويصنع، والإنسان يعمل ويكسب، حياته الطبيعية تتقاضاه أن يعمل،

وحياته النفسية تتقاضاه أن يعمل، وحياته في أسرته وفي بيئته، وفي أمته وفي الأسرة الإنسانية وفي علاقته الروحية، كل أولئك يتقاضاه أن يعمل.

فلننتقل إلى هذا الجانب الإنساني؛ إلى عمل الإنسان، وهو جانب يتألف كذلك من عنصرين: عنصر نظري تعليمي؛ نري فيه نماذج الأعمال الإنسانية في مختلف صورها، جميلها ودميمها. وعنصر عملي تنفيذي، هو صدى تلك المعرفة، وثمرة تحريكها لعزائمنا.

ولنبدأ بالعنصر النظري، كيف عرض القرآن علينا صور العمل الإنساني؟

إنه يتبع في ذلك منهجًا مزدوجًا، يجمع بين القيم الذاتية والقيم العرضية للأخلاق والسلوك:

منهج القيم الذاتية الذي يخاطب الضمير، يدعو إلى الفضيلة باسم الفضيلة، مصورة ما فيها من جمال واعتدال، وينهى عن الرذيلة باسم الرذيلة، مبينًا ما فيها من دنس وانحراف.

ومنهج القيم العرضية الذي يخاطب العاطفة، يرغب في الفضيلة وينفر من الرذيلة باسم المصلحة الحقيقية، ويحكم النظر إلى عواقب الأمور وآثارها في العاجل والآجل، ويضرب لذلك الأَمثال الكثيرة، ويقص من أَجل ذلك السير التاريخية في مختلف العصور.

العجيب من شأْن سورة الفاتحة أنها -على فرط إيجازها- قد انتظمت المنهجين جميعًا في كلمتين؛ ذلك أنها حين حببت إلينا طريق الفضيلة بيَّنت لنا أولا قيمته الذاتية، فوصفته بالاعتدال والاستقامة ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ثم بينت ما في عاقبته من نفع وجدوى، فوصفته بأنه الطريق الموصل إلى رضوان الله ونعمته، وأشارت في الوقت نفسه إلى مثله التاريخية في صورة أهله، الذين نصبوا أنفسهم للقدوة الحسنة:﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، الذين عرفوا الحق فقدسوه، وعرفوا الخير ففعلوه.

ثم لم تكتف بذلك، بل وضعت معيارًا لأَنواع الطرق المنحرفة عن طريقهم، فبينت أن الانحراف على ضربين:

انحراف عن قصد وعلم: عنادًا واستكبارًا واتباعًا للهوى، وهذا هو طريق ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، الذين رأَوا سبيل الرشد فلم يتخذوه سبيلًا ورأوا سبيل الغي فاتخذوه سبيلًا.

وانحراف عن جهل وطيش، وهذا هو طريق ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، الذين لا يتوقفون عند الشك، بل يقتفون ما ليس لهم به علم، فيخبطون خبط عشواء دون تثبت ولا تبصر.

لا ريب أن كلا الضربين مذموم، وإن كان بعضهما أسوأ من بعض والعالم المنحرف مأْزور، والجاهل المنحرف غير معذور، والعالم المستقيم هو المبرور المأْجور.

هذه المشارب الثلاثة، نجد دائمًا أمثلتها في الناس، لا في شأن الخلق والسلوك فحسب، بل في كل الشئون؛ في الاعتقاد والرأي والتعليم والأخبار والفتيا، والحكم والقضاء، وهكذا جاء في الحكمة النبوية: قاضيان في النار وقاض في الجنة؛ فالقاضي الذي في الجنة رجل عرف الحق فقضى به، واللذان في النار: رجل عرف الحق فقضى بخلافه، ورجل قضى للناس على جهل.(١)

من استحكمت معرفته بهذا الأصل النظري، وتبينت له مسالك الهدى والاستقامة، ومسارب الاعوجاج والضلالة، ماذا يكون موقفه العملي منها؟

لا ريب أن العاقل الرشيد يلتمس من هذه الطرق أقومها، ويطلب أسلمها، ويتوجه بعزمته إلى أحسنها، هذا الالتماس والطلب والتوجه هو الذي ترجمته لنا سورة الفاتحة في كلمة ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

وهكذا نرى السورة الكريمة قد انتظمت المقاصد القرآنية الأربعة:

الجانب الإلهي نظريه وعمليه، والجانب الإنساني في نظريه وعمليه، كل ذلك في أوجز عبارة وأحكم نسق.

سورة الفاتحة إذن هي خريطة القرآن وبيان مواده، إنها جوهرة القرآن ونواته ولب لبابه، فهي بحق (أم القرآن).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأقضية ، باب القاضي يخطئ (٥/ ٤٢٦ح ٣٥٧٣)، وابن ماجه في السنن ، كتاب الأحكام ، باب باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق (٢/٧٧٦ح ٢٣١٥) عن بريدة رضي الله عنه . وإسناده صحيح بشواهده.

كانت هذه هي النظرة الأولى، وازنًّا فيها بين مواد الفاتحة ومواد القرآن، وبقيت لنا نظرة ثانية سريعة، نوازن فيها بين أسلوب الخطاب في الفاتحة وأسلوب الخطاب في القرآن؛ ماذا نرى في هذين الأسلوبين؟

ترى اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف: فسورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي وضعت من أول الأمر لا على لسان الربوبية العليا، ولكن على لسان البشرية المؤمنة، تعبيرًا عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى السماء، على حين أن سائر السور تعبر عن الحركة المقابلة، حركة الرحمة المرسلة من السماءِ إلى الأرض.

وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورة مناجاة ثنائية: الفاتحة أحد طرفيها، وسائر القرآن طرفها الآخر، الفاتحة سؤال، وباقي القرآن جواب.

الفاتحة هي طلب الهدى، والباقي هو الهدى المطلوب.

فلننفذ بهذه النظرة إلى نهايتها، فإنها ستعود إلينا بحصيلة ثمينة من العبر النفسية: أول ما نلتقطه من هذه العبر: أن القرآن -وهو دستور الإسلام- لو جاءنا بدون الفاتحة لكان دستورًا وافدًا على الأمة طارئًا عليها، يعرض نفسه عليها عرضًا، أو يفرض عليها فرضًا، أو يمنحها منحًا، فليكن مع ذلك حقًّا كله، وخيرًا كله، وهدى كله، لكنه لو لم تطلبه الأمة ولم تعلن حاجتها إليه، لكان لها أن تستقبل

البضاعة المعروضة بغير طلب، وأن تقول له زاهدة فيه: لا حاجة بي إليك، أما الآن فالموقف يختلف كل الاختلاف.

إن موقع الفاتحة هنا موقع القرار الجماعي، الذي تعلن به الأمة المؤمنة حاجتها إلى هذا الدستور وتؤكد مطالبتها به، وإن موقع القرآن كله -بعد الفاتحة- هو موقع القبول والاستجابة لهذا المطلب، فما هو إلا أن أعلن المؤمنون مطالبهم هذا قائلين: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ وإذا بالقرآن يزف إليهم هديته وهدايته قائلًا لهم: دونكم الهدى الذي تطلبون، فكانت أول كلمة في القرآن بعد الفاتحة هي: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[1]

و هكذا جاءهم على ظمأ وتعطش؛ فكان أنقع لغلتهم، وكان أكرم على نفسه وعلى الناس، من أن يتعرض للمعرضين عنه، وأن يلزم من هم له كارهون، وكان فوق ذلك كله أقطع لحججهم ومعاذيرهم في إهماله ونسيانه، لو أهملوه أو نسوه فيما بعد، ذلك أنه لم يلزمهم إلا ما التزموا ولم يجئهم إلا بما طالبوا، وخير الدساتير ما نبع هكذا من حاجة الأمة وكان تحقيقًا صريحًا لمطامحها الرشيدة.

لم تكتف الأمة المؤمنة بأنها طالبت بهذا الدستور، ولكنها اختارت ووحدت السلطة نفسها، ونصت في صلب قرارها على المؤهلات الممتازة التي كانت سببًا في هذا الاختيار والتعيين، فقد طلبت أن يكون هذا التشريع من عمل المشرع الأعظم

(١) سورة البقرة: ٢.

الأكرم، المعروف بخبرته التامة في التربية العالمية: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وبعطفه الشامل على مطالب الرعية: «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، ثم أعلنت في صلب قرارها أن المسئولية النهائية لجميع السلطات التنفيذية ستكون أمام هذه السلطة التشريعية العليا ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

ثم لم تكتف الأمة المؤمنة بهذا كله، بل إنها وضعت الإطار الذي يلزم أن يقع هذا التشريع في داخل حدوده، ورسمت المبادئ الأساسية التي يجب أن يقوم عليها، فطالبت بأن يكون تشريعًا لا يميل مع الهوى يمنة ولا يسرة، تشريعًا لا يقوم على فكرة المحاباة لفرد أو لفئة أو لشعب، ولكن يمثل العدل الصارم، والصراط المستقيم.

وأخيرًا لم تقتنع في وصف هذا التشريع بتلك الأوصاف العامة والألقاب الكلية، بل حددت نموذجه ومثاله من الواقع التاريخي، فطالبت بأن يكون من فصيلة التشريعات الفاضلة المعروفة، التي جربت فائدتها وتحقق حسن عاقبتها وشرعة الذين أنعم الله عليهم بالتوفيق والرشاد.

إذا نظرنا إلى الفاتحة من هذه الزاوية فإنه يحق لنا أن نقول: إن القرآن إذا كان هو الدستور والفاتحة هي أساس الدستور، بل لو صح هذا التعبير لقلنا: إنها دستور الدستور.

رسالة الإسلام وسر نجاحها

الحمد لله، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على جميع الأديان ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على خير خلقه، سيد المرسلين محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: لقد نظرنا في تاريخ الحركات الدينية وتاريخ الرسالات الإصلاحية، ونظرنا في تاريخ الدول الناشئة، وتاريخ الدعوات الجديدة؛ فما رأينا كرسالة الإسلام، في سرعة انتشارها وفي تمكنها واستقرارها وفي عمق نفوذها وبُعد آثارها.

لقد قام الإسكندر بفتوحه الخاصة قبل ميلاد المسيح، فهل كانت تلك الفتوح كالنار في الهشيم، سرعان ما اشتعلت، وسرعان ما انطفأت؟ وهل اقتبست البلاد المفتوحة عقائد الفاتحين وعوائدهم، وأنظمتهم وآدابهم؟ ألم يكن الأمر على العكس، فاعتنق الفاتحون أنفسهم ديانة البلاد التي فتحوها؟!

وقد جرب الاستعمار الأوربي الحديث حيله الواسعة، وأساليبه الجبارة في بلاد الشرق، لكي يغزو عقول أهليها وقلوبهم، كما غزا أرضهم وديارهم، فهل ظفر منهم إلا بالقشرة السطحية من صور الحياة؟! ثم هو ذا يجلو عن ديارهم واحدة بعد واحدة في آماد مديدة، فيخرج منها كما دخلها أول مرة، لم يغير شيئًا من جوهرها في عقائدها وفي لغتها وفي أسلوب تفكيرها!

أما رسالة الإسلام، فإنها حين بسطت جناحيها في أقل من قرن على نصف المعمور، كانت كأنما أنشأت خلقًا آخر، لقد بدلته من أوطانه المتفرقة وطنًا واحدًا، ومن قوانينه المختلفة قانونًا واحدًا، ومن آلهته المتعددة إلهًا واحدًا.

لقد نفذت إلى جوهر نفسه فحولته تحويلًا، وبدلت أسلوب تفكيره تبديلًا، بل عمدت إلى لغته فأضافت لغة القرآن لسانًا إلى جانب لسانه، وكثيرًا ما أنسته لسانه الأصيل، وجعلت لسان الإسلام هو لسانه الوحيد، ثم هي لا تزال في كل عصر تتلقى معاول الهدم من أعدائها، وعوامل التحلل من أبنائها، فتتكسر هذه الصدمات على صخرتها وهي قائمة تتحدى الدهر، وتنتقل من نصر إلى نصر: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1].

فليحاول الباحثون ما شاءوا أن يتعرفوا مصدر هذه القوة الغلابة وهذا الانتصار الباهر! إن هذا النجاح ليس مرده في نظرنا إلى سبب واحد، ولا إلى فصيلة واحدة من الأسباب: لقد تضافرت عليه شخصية الداعي، ومنهاج دعوته أو شخصية الأمة التي تلقت تلك الدعوة، وطبيعة الدعوة نفسها، ومن وراء ذلك كله كلاءة الله ورعايته لهذه الرسالة حتى بلغت كمالها.

أما صاحب الرسالة -وما أدراك من صاحب الرسالة- فحسبك منه أنه -عليه الصلاة والسلام - جمع خلالًا، كل واحدة منها كانت عنصرًا فعالًا في هذا النجاح،

(١) سورة آل عمران: ١٢٦.

خلالًا نعد منها ولا نعدها، ونرسم شيئًا من جوانبها ولا نحدها: صبرًا ومصابرة، وجدًّا ومثابرة، وحرصًا على بلوغ الغاية والتزامًا لأدق حدود الصدق في الوسيلة وفي الغاية، تلطف في الدعوة وقصد في الحجة، وتعليم بالأسوة والقدوة، وتأديب باللمحة والنظرة، وطهر في السيرة والسريرة، لا حقد ولا ضغينة، ولا ختل ولا مواربة، سخاء بما في اليد، وزهد فيما بيد الناس، تضحية بحظوظ نفسه، ونزول عن حقوق شخصه.

أما في تبليغ الرسالة وإقامة العدالة؛ فعزيمة متوافرة لا تني، وصلابة في الحق لا تنثني، هذه الخلال الفضلى وأمثالها وأمثال أمثالها تنبع في نفس الرسول الكريم، من ينبوع ذي ثلاث شعب: الإيمان، والحب، والأمل، إيمان بقدسية الرسالة وضرورة حملها، وحب للإنسانية، واهتمام بإنقاذها، وأمل في نجاح الدعوة وبلوغها أقصى غاياتها.

نعم، إن هذا القلب الذي يمتلئ إيمانًا وحكمة، يفيض في الوقت نفسه حنانًا ورحمة، ويطالع في الأُفق دائمًا أملًا باسمًا في النجاح والفلاح.

لا أقول: إنه يفيض رحمة بأتباعه وحسب، فإنه -وإن كان لأتباعه من رحمته النصيب الأوفر - رحمة للعالمين: لأعدائه وأوليائه أجمعين، حريص على خيرهم

وسعادتهم، مشفق عليهم من غيهم وشقوتهم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ولا أقول: إنه كان يداعب أملًا في نجاح جزئي يخص عشيرته الأقربين، أو يخص أم القرى وما حولها، ولكنه كان يحمل أملًا في نجاح محيط شامل ينتظم البشرية كلها، ألم تر كيف كان كل انتقاص من محيط هذا النجاح انتقاصًا من طيب نفسه ونعيمها، وزيادة في أحزانها وآلامها، هذا القلب الرحيم، كيف يطيب له عيش وهو لا يزال يرى طائفة في الإنسانية يعيشون في ظلمة الضلالة والجهالة، أو في حمأة الفساد والرذيلة، أو تحت نير الذل والعبودية لغير الله؟! كيف يطيب له عيش وهو كلما حاول استنقاذهم وتكريمهم وإعزازهم تفلتوا من يديه وتردوا أمامه في الهاوية متهافتين على ضلالهم كما يتهافت الفراش على النار؟!

لا بد إذن أن يعيد الكَرَّة، وأن يجدد التجربة مرة بعد مرة، عسى أن يتحقق له هذا الأمل المنشود، فتشرق الأرض كلها بنور ربها، وتصبح برًّا وعدلًا، وسعادة وكرامة.

إيمان قوي، وحب عميق، وحرص على اقتناص الأمل البعيد، ذلك هو سر عزمه المتوقد، وجهاده المتجدد الذي كان أول عوامل النجاح.

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨

هذا العامل -من جانب صاحب الرسالة- يسنده ويؤيده عامل آخر من جانب الأمة التي تلقت تلك الدعوة، والأرض التي بزغ فيها نورها، أرض بكر لم تدنسها في التاريخ كله أقدام الفاتحين، ولم تتحكم فيها يومًا ما أيدي الغاصبين.

وأما ألمعية الذهن فقد نشبت عنها المقاومة الغريزية الأولى لكل غريب وفتحت عينها على كنه النور الجديد، وإذا هو ملك عليها شعورها وتفكيرها، فحملت مشعله بسواعدها القوية وقلوبها الفتية، الحمية إذن هي الحمية، ولكنها حمية الحق لا حمية الجاهلية، هكذا تجاوبت نفسية الداعي والمدعو، فالتقت القوتان في حلقة مفرغة حملت إلى العالمين رسالة الإسلام.

وختامًا، فما رسالة الإسلام؟ إنها رسالة تدعو إلى نفسها بنفسها، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[1]، رسالة نزيهة القصد، مجردة عن كل غرض، لا تطلب الأجر، ولكن تمنح الأجر، إنها ليست رسالة العلو والاستعباد، ولا رسالة الطغيان والفساد، ولا رسالة البؤس والحرمان، إنها رسالة النور والإيمان، والعدل والإحسان، رسالة الفطرة السليمة والأخلاق الكريمة، والسياسة الحكيمة، سياسة السداد والرشاد في شأني المعاش والمعاد، فلماذا لا تكون رسالة الإنسانية كلها؟! لماذا لا تعتنقها البشرية جميعًا؟!

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[2]

---

(١) سورة النور: ٣٥.

(٢) سورة القصص: ٥٦.

المجتمع الصالح وكيف يتكون؟

الحمد لله أمر بالتآلف، ونهى عن التفرقة، والصلاة والسلام على أفضل من ألَّف بين قلوب المؤمنين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد: فإن المجتمع الصالح يتكون من المواطنين الصالحين، والمواطن الصالح هو الذي يتخذ من وطنه ومن مواطنيه موقفًا يتوافر فيه شرطان اثنان: كف الأذى، وبذل الندى.

المواطن الصالح هو الذي يأمن الوطن والمواطنون شره، ويرجون خيره وبره، هو الذي يحترم حقوق غيره، فلا ينتهكها ولا يخونها، وينهض بواجباته فلا يتهاون فيها ولا ينتقصها.

أخي القارئ: ما السبيل إلى تحقيق هاتين الغايتين؟ ما وسيلتنا الناجعة لتطهير أعضاء المجتمع من داء الفساد والإفساد، ومن مرض التقصير والإهمال؟

في سبيل هذه الغاية المزدوجة تلجأ الدولة عادة إلى أيسر الوسائل وأعجلها، تلجأ إلى فرض العقوبات الرادعة على من تسول له نفسه انتهاك حرمات القانون، وإلى فرض الجوائز المشجعة لمن يؤدي واجبه في صدق وأمانة، ترجو من وراء ذلك أن المسيء إذا عرف أن عينها ساهرة، وأنها تأخذ كل مذنب بذنبه، وأنها إذا أخذته لم تفلته – كان ذلك حاجزًا له ولغيره عن الإثم والظلم، وأن المحسن إذا عرف أن

جهده لم يضع هباءً وأنه سيكافأ على قدر خدمته وإفادته – كان ذلك باعثًا له على مضاعفة الجهد.

لكن الواقع أن هذا العلاج بنوعيه لا يزيل الداءَ بنفسه، ولكن يخفف من وطأة الشر، وأهل الشر كثيرون، وأن الدولة لو كان لها أَلف عين ساهرة ما استطاعت أن تقتفي أثر الناس جميعًا في الخلوات والفلوات، وأن تحيط علمًا بحسناتهم وسيئاتهم في السر والعلن!

وهكذا يبقى في المجتمع دائمًا مجرمون معتادو إجرام، مطمئنون إلى أنهم سيفلتون من طائلة العقاب، ويبقى في المجتمع دائمًا عاملون كادحون، لقد تركوا في زوايا النسيان والحرمان، بل نقول: إنه حتى في الحالات التي يقع عليها سمع الدولة وبصرها، وتنفذ فيها وعدها ووعيدها، فتكف بالعقوبة أذى الأشرار، وتؤيد بالمثوبة جهود العاملين– نقول: إنها تصل إلى هذه النتائج من غير مقدماتها، وتأتي البيوت من غير أبوابها، ذلك أنها لا تحسم الداءَ ولا تقتلع جذوره، ولكنها تدرأُ الخطر، وتسكن الأَلم وتعالج الأُمور علاجًا سطحيًّا وقتيًّا ولا تمنع النكسة، ولا تكفل البرء الدائم المستقر؛ لأن موطن الداء في العقل الباطن المكبوت قد ترك على سجيته، فإن كانت نزعته إلى الإثم والعدوان، فلسوف يتلمس نقطة ضعف في الحواجز ليقتحمها ويعود إلى ما كان له من جموح وثورة، وإن كان ميله إلى التثاقل

والقعود، فسوف يتربص أول فرصة ليعود إلى ما كان عليه من استرخاء وفترة؛ لأن سلوكه في كلتا الحالتين مرهون بأسباب خارجية، يتحول بتحويلها.

وأخيرًا نقول: إنه حينما يكون هذا العلاج المادي حاسمًا ونهائيًّا -بلا رجعة ولا نكسة- فإنه إنما يصل إلى هذه النتيجة على حساب الكرامة الإنسانية والفضيلة النفسية، ذلك أنه يجعل اجتنابنا للإثم والظلم والتزامنا للعدل والخير عملًا آليًّا أو شبه آلي، وأنه في سبيل ذلك يستغل ما في النفوس من غريزتي الخوف والطمع، وهما أحط الغرائز وأقربها إلى الفطرة الحيوانية، فالمجتمع الذي لا يكف أفراده عن الشر، ولا ينبعثون إلى فعل الخير إلا بعوامل الرغبة والرهبة -مجتمع بدائي غليظ لا يصح أن يحسب نفسه في عداد المجتمعات الراقية المهذبة.

لست أدعو بهذا إلى إلغاء قوانين العقوبات، ولا إلى إبطال سنة الجوائز والمكافآت، ولا إلى محو أسلوب الترغيب والترهيب محوًا تامًّا من مناهج التربية والتثقيف، فذلك ما لم تخل منه شريعة وضعية ولا سماوية، ولا عصر من أرقى عصور المدنية، ولكنني أُقرر أن هذا الضرب من العلاج يجب أن يعد علاجًا استثنائيًّا مدخرًا في كل جماعة لشذاذها الناقصين، في تكوينهم النفسي والاجتماعي، أولئك الذين رسبوا في مراحل نموهم، فبقوا دهرهم في دور الطفولة البشرية أدنى إلى الحيوان منهم إلى الإنسان، أولئك الذين لا يقادون إلا من أنوفهم، ولا يؤمنون إلا ما تبصره أعينهم وتلمسه أيديهم.

فأما سائر البشرية، فأما الفطر المرنة القابلة للتطور والترقي، فإنه يجب أن يعتمد في تربيتها على ما ينطوي فيها من الصفات الكريمة، والمشاعر النبيلة، وأن يبدأ في تغذيتها منذ نعومة أظفارها بالغذاء الأدبي المعنوي اللائق بإنسانيتها، كما يجب أن يعوض ما تفقده من غذائها في أثناء نموها بعلاج هادئ رفيق، بطيء عميق، نفاذ فعَّال تتحول به الصفات، ويقوم به المعوج من الأهداف والنزعات، هذا الغذاء والعلاج -وإن اختلفت ألوانه، وتشعبت مسالكه- له في موضوعنا اسم واحد: ذلك هو إيقاظ الشعور بالمسئولية في كل ضمير، ذلك هو إشعار كل عامل وكل مقبل على عمل بأن عمله منظور إليه معدود له أو عليه، وأن كل حركة منه أو سكون مكتوبة محسوبة منظورة مسموعة، وأنه سيوجه إليه في شأنها السؤال، وأنه سيقدم عنها الحساب؛ ثم صقل الحساسية النفسية، وإقناعها بقيمة هذه المناقشة والمحاسبة، وما سيكون لها من موقف عظيم، تتهيب النفوس الحية ما قد يسفر عنه من لوم وتثريب و تفرح النفوس المطمئنة مما قد يتجلى عنه من ثناء وتكريم، ولو لم يكن وراء ذلك عقوبة ولا مثوبة.

إيقاظ الشعور بالمسئولية في كل ضمير هو الخطة التي أجمعت عليها أقوال الحكماء والمربين، لكن ما طبيعة السلطة التي ستتولى محاسبتها؟ وما كُنْه هذه الحكمة التي سنقف أمامها لتقديم الحساب من أعمالنا؟

هنا تتشعب المذاهب الإصلاحية إلى ثلاث شعب:

- فالمذاهب ذات النزعة الأخلاقية تجعل مسئولية كل امرئ أمام نفسه ومن ثم تبذل جهدها في تربية الضمير الفردي.
- والمذاهب ذات النزعة الاجتماعية تعد المسئولية أمام الأمة، ولذلك تعنى بتربية الوجدان الاجتماعي.
- والمذاهب ذات النزعة الروحية الصوفية تقرر أن المسئولية أمام الله وحده، وهكذا توجه كل عنايتها لتربية الشعور الديني.

إذا فلا بد من دوافع التربية الصالحة في النشء الجديد، الذي ننتظره لرفع راية الإسلام عالية، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وبذلك يمكننا-بعون الله- أن نربي جيلًا يعرف الحق، فيتمسك به، ويعمل له ويعرف الباطل فيجتنبه ويحذر منه، ويومئذ تصلح الأحوال، ويبلغنا الله تعالى مقاصدنا في طاعته، وما ذلك على الله بعزيز. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم.

بين العدل والفضل

الحمد لله مدح الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة والصلاة والسلام على سيد الكُرماءِ وأَتقى الأَتقياءِ، وعلى آله وأَصحابه البررة الأَوفياءِ.

وبعد: لقد نظرنا مليًّا إلى مناهج الناس ومشاربهم في سلوكهم فوجدناهم يصدرون في معاملاتهم عن إحدى نزعات ثلاث: إما نزعة الاستئثار، وإما نزعة الإيثار، وإما نزعة المبادلة والمعادلة:

نزعة الاستئثار نزعة يغلب فيها حب الأخذ على حب العطاء، ونزعة الإيثار نزعة يزيد فيها حب البذل والنفع على حب الأخذ والانتفاع، وتنزعه المبادلة نزعة يتقابل فيها الطرفان على حد سواء.

بعض الناس يميل بطبعه إلى الاستئثار والعلو: يحفظ ما في يده ويتطلع إلى ما في يد غيره، يكيل لنفسه بالكيل الأوفى، ولغيره بالبخس والخسران، يظلم قبل أن يظلم، فإذا أوذي أسرف في الانتقام، وجاوز الحد في العقاب، وهكذا يسعى إلى أن يكون أبدًا هو الغالب الرابح، ولو بالإثم والباطل.

وبعض يستوحي في معاملته قانون العدل والمساواة، ولكنه يطبقه من جانبه تطبيقًا صارمًا، فلا يعطي إلا بقدر ما يأخذ، ولا يجزي إلا على وفق ما ينال، لا يحب أن يظلم، ولكنه أيضا لا يغضي على قذى، فهو يجزي بالسوء سوءًا كما يجزي بالإحسان إحسانًا.

وبعضهم تغلب عليه نزعة السماحة واليسر، فهو إلى العفو والصفح أميل منه إلى الانتقام، وهو إلى بذل واجبه أسرع منه إلى استيفاء حقه، تسخو نفسه بأن يعطي أكثر مما يأخذ، وأن ينتقص من حظه ليزيد في حظ الآخرين.

ما قيمة هذه المنازع الثلاثة في نظر القرآن؟

لعل من نافلة القول أن نفيض في بيان حكم القرآن على الفئة الأولى سجية الأثرة والبغي والعلو، فالقرآن مشحون بذمها ومقتها والنعي عليها؛ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[1]، ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[2]، ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] فإذا جاوزنا نطاق هذه الفئة المذمومة إلى ذوي المبدأين الآخرين؛ مبدأ المحاسبة على قانون المساواة والعدل، ومبدأ السماحة والفضل، فقد يلوح لنا في بادئ الرأي أننا نتجه بذلك نحو مبدأين ساميين، ومثلين حميدين، وقد نظن أن التفاوت بينهما في نظر القرآن لن يكون إلا تفاوتًا في مراتب النبل والسمو، على حين يجمعهما شعار الفضيلة، وينتظمهما شرف الحمد والثناء.

فهل يصدق هذا الظن؟

---

(١) سورة طه:١١١

(٢) سورة القصص: ٨٣.

(٣) سورة المطففين: ١-٩.

هل إذا نظرنا إلى هذين المبدأين في مرآة القرآن الحكيم نراهما معروضين في معرض الفضائل المأمور بها، أو المثني عليها، وهل نجد التفاوت بين مكانيهما في معرض الأخلاق القرآنية ليس إلا تفاوتًا في مقدار الحث والترغيب، ومبلغ الحمد والثناء؟ هيهات هيهات!

إن القرآن حين وزع القيم الأخلاقية على هذه المبادئ لم يجعل القسمة بينهما قسمة ثنائية، ولكنه جعلها قسمة ثلاثية، لها طرفان ووسط.

جعل من بينها فضيلة واحدة رفعها إلى الطرف الأعلى، تلك هي فضيلة الإيثار، وجعل من بينها رذيلة واحدة وضعها في الطرف الأدنى، تلك هي رذيلة الاستئثار، أما الوسط بين الطرفين وهو مبدأ المقاصة الدقيقة بين الحقوق والواجبات وتحري المساواة بينها -تلك القاعدة التي كانت الحكمة اليونانية تعدها أم الفضائل- فإنها في نظر القرآن ليست فضيلة رذيلة، إنها لا تستحق عنده مدحًا ولا ذمًا، وإنما هي رخصة مباحة لها ثواب ولا عقاب عليها.

من كان في شك من ذلك، فليقرأ قول الله-جلت حكمته-:

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[1]

(١) سورة الشورى: ٤١-٤٣

هكذا دفع رذيلة الظلم والبغي فجعلها مناط الذم واللوم، ومجلبة العقاب الأليم، ثم أشاد بفضيلة الصبر والمغفرة فجعلها من عزم الأمور، وكتب على نفسه أنه سيدخر الأجر لصاحبها حيث قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[1]، أما المقاصة في الانتصاف من الظلم فإنه لم يتبعها ذمة ولا ثناء، ولم يرتب عليها ثوابًا ولا عقابًا، وكان كل حكمه فيها أنه رفع الحرج واللوم عن صاحبها، فقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾.

هذه القسمة الثلاثية نجدها في مواضع كثيرة من القرآن الحكيم: يقول الله-جل ثناؤه-: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[2]، ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[3]

نهى الناس بادئ ذي بدءٍ أن يغلظ بعضهم لبعض بالفاحش من القول، فهذه هي الخطة المذمومة، خطة البدء بالإساءة، وقد بين أنها تستوجب غضب الله، ثم استثنى من استحقاق هذا الغضب من كانت إساءته ردة لمظلمة، فأخرجه من عداد المغضوب عليهم، ولكنه لم يثن عليه ولم يرغبه في هذا الانتصاف، ثم ختم ببيان الحميدة والفضيلة المندوب إليها، وهي خطة العفو عن الإساءة، فأشار إلى أن من

(١) سورة الشورى: ٤٠

(٢) سورة النساء: ١٤٨، ١٤٩

(٣) سورة النساء: ١٤٨.

عفا عن سوء فقد تخلق بأخلاق الله، ثم ألا يذكر الذي أسيء إليه أنه هو نفسه ليس بريئًا من الذنوب، ولا يعلوها من السيئات، كان يحب أن يغفر الله له فليغفر هو لأخيه: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(١)

ولنستمع إلى مثال ثالث من هذه القسمة الثلاثية في القرآن: يقول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾(٢)، فبين في هذه الجملة الوجيزة بُعْد المدى بين طرفي الرذيلة والفضيلة؛ رذيلة الأخذ بغير حق، وفضيلة البذل لما هو أكثر من المستحق، ثم ذكر الوسط بينهما بعد ذلك في أسلوب التمليك والتخيير، دون ترغيب ولا ترهيب، فقال عز شأنه: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾(٣)، نعم إن من حقك أن تستوفي دينك كاملًا غير منقوص، ولكن الحق شيء وكرم الأخلاق شيء آخر، ولذلك عاد مرة أخرى إلى الترغيب في فضيلة المسامحة والمكارمة، فقال عظمت رحمته: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٤)

وبعد: فإنه على الرغم من وضوح هذه الدلائل والشواهد لا تزال ها هنا شبهة قوية، وكأني بالسائلين من كل جانب: كيف ننزل هكذا بمبدأ العدل

---

(١) سورة النور: ٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٧٦.

(٣) سورة البقرة: ٢٧٩،٢٨٠

(٤) سورة البقرة: ٢٨٠.

والمساواة، فنخرجه من نطاق الفضائل والرذائل، ونجعله أمرًا مباحًا مرخصًا فيه، لا يستحق مدحًا ولا ذمًا، ولا أمرًا ولا نهيًا؟ أليس القرآن نفسه قد كرر الأمر به والثناء عليه في أكثر من موضع؟

﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾(١)، ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٢)، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(٣)، ذلك مبين في المقال التالي، وقبل أن نعود إلى إيضاح العدل، لا بد من بيان فضل الإيثار، الذي لا يساويه أي فضل، ويكفيك شرفًا به أن الله امتدح أقوامًا آثروا ضيفهم على أنفسهم وأولادهم.

وهذا القرآن الكريم يوضح ذلك بقوله:﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٤)، وقد وعد البشير النذير المعنيين ببشارة المدح التي بنص القرآن الكريم.

---

(١) سورة النساء: ١٣٥

(٣) سورة المائدة: ٨.

(٣) سورة الحجرات:٩.

(٤) سورة الحشر: ٠٩

متى يكون العدل فضيلة؟

الحمد لله ولا إله إلا الله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

وبعد: سؤال ينتظر جوابًا: ذلك هو السؤال عن مبدأ "المعاملة بالمثل"، وعن قيمته الأخلاقية في نظر الحكمة القرآنية، من قضية هذا المبدأ أن يعامل الرجل أخاه على أساس المساواة في الخير وفي الشر: يجزيه بالسوء سوءًا وبالإحسان إحسانًا، لا ينتقص من حظ نفسه شيئا ليزيد في حظ أخيه، ولا ينتقص من حظ أخيه شيئا ليزيد في حظ نفسه، ولكن يعطيه بقدر ما يأخذ منه.

هل هذه المبادلة والمعادلة فضيلة محمودة في دستور القرآن، يأمر بها أو يرغب فيها، أو يثني عليها؟

لقد قلبنا النظر في جوانب كثيرة من إرشادات القرآن الحكيم، سواء في نطاق المعاملات المالية، أو في دائرة الشئون الاجتماعية، أو في معرض الأحداث الجنائية- فوجدناه في كل ذلك ينهى عن التزيد في حق النفس ويحض على الزيادة في حق الغير، أما المعاملة بالمثل فلا نجد فيه نهيًا عنها ولا تحريضًا عليها، وإنما نجد إذنًا وتخييرًا ورفعًا للحرج، لا زائدًا على ذلك.

هكذا نظرنا في القرآن حين يتحدث في شأن المعاملة المالية، فوجدناه جهة ينهى عن أخذ الربا، وعن أكل أموال الناس بالباطل، ومن الجهة الأخرى يأمر الدائن بإنظار مدينه المعسر، ويندبه إلى التصدق عليه بدينه، أما المحاسبة على السواء فلا يذكرها

القرآن قادحًا أو مادحًا، ولكن يذكرها مقررًا لوضعها القانوني المباح: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[1]

ثم نظرنا في القرآن حين يتناول أساليب المخالطة والمعاشرة، فوجدناه من جهة ينهى عن الفحش والأذى والخشونة والغلظة، ومن جهة أخرى يأمر بالعفو عن الأذى، والإعراض عن اللغو، ويثني الثناء المكرر على مقابلة الإساءة بالإحسان، أو بالتي هي أحسن؛ أما مقابلة السيئة بالسيئة فيتركها حقًّا سائغة لمن حرص عليها غير باغ ولا عاد.

ثم نظرنا في القرآن حين عرض لجريمة الإفك والقذف، فوجدناه ينهانا أن نعامل القاذف بقطع ما بيننا وبينه من رحم، أو منع ما يستحقه لدينا من بر وصلة، ويحرضنا أشد التحريض على أن تشمله بكريم الصفح والمغفرة التماسًا لعفو الله ولمغفرته.

فإذا استقصينا هذه المثل وأشباهها، فإن المنطق يتقاضانا أن نستخلص منها هذه القضية الكلية: وهي أن المعاملة الفاضلة في نظر القرآن إنما هي المعاملة على قاعدة احتمال الأذى، وبذل الأكثر، وأخذ الأقل، أعني أنها هي التي تقوم على العفو والإيثار والفضل.

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٩.

وأن الرذيلة إنما هي الطرف الأقصى: في منع الحق، وأخذ ما ليس بمستحق، أعني أنها تقوم على الجور والاستئثار والبخس، أما الخطة التي بين بين، وهي المعاملة بالمساواة والمعادلة الدقيقة فإنها إذا وزنت في معايير الحكمة القرآنية لم تستحق أن تسمى فضيلة ولا رذيلة، وإنما هي رخصة لا يتوجه إليها أمر ولا نهي، ولا يناط بها مدح ولا ذم، ولا يستحق صاحبها ثوابًا ولا عقابًا.

لكن الإشكال البارز في هذه النظرية أنها في بادئ الرأي تصادم المعقول والمنقول: أما المعقول فهو ما تقرر في الفطر السليمة أن العدل فضيلة، بل هو أس الفضائل، وأما المنقول فالقرآن الكريم نفسه كثيرًا ما يشيد بمبدأ العدل والمساواة: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾(١)، ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٢)، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(٣).

فلننظر الآن في حل هذه المشكلة، وفي إزالة هذا التعارض:مفتاح المسألة في نظرنا هو الفصل التام بين مقامين: مقام الحكم ومقام المعاملة، فمقام الحكم هو مجال العدل الدقيق الصارم، ومقام المعاملة هو مجال العفو والمسامحة، والمكارمة والمجاملة؛فالقاضي حين يفصل بين الخصمين، والوالد حين يوزع بره بين أولاده، والمربوُّن والمعلم، والوصي والقيم؛ وكل راع في رعيته -ليس له أن يحابي أو يجامل، أو يؤثر أو يفضل؛ إذ كيف يؤثر مما لغيره، وكيف يتفضل بما ليس من حقه؟!

---

(١) سورة النساء: ١٣٠

(٢) سورة المائدة: ٨

(٣) سورة الحجرات: ٩.

أتتملكه عاطفة الإنسان على البائس الفقير، فيجامله في الحكم كاملًا؟﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾(١).

أتدفعه سورة الغضب على العدو فيضاعف عليه الغرم؟. كلا؛

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾(٢).

أتحمله صلة القرابة أو النسب، أو عصبية الإقليم أو المذهب على التحيز لإخوانه فيها ظالمين أو مظلومين؟ كلا؛ ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾(٣)

أيحز في نفسه منظر العقوبة؟ أيزعجه صوت الشكاية، فيعفو عن الجريمة بعد أن ذاع خبرها، ورفع إليه أمرها؟ كلا؛ ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾(٤)

أيترك دولة الإسلام نهبًا لأعدائها، أو يقطعهم شبرًا من أرضها، أو يمنحهم حق التحكم في رقبة من رقاب أهلها؟ كلا، إن أرض الإسلام وحقوق المسلمين ليست ملكًا لفرد ولا جماعة، وليست حقًّا لأمة ولا لجيل من الأمم، إنما هي حق الأجيال كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فالتسامح فيها تصرف في حق الغير،

---

(١) سورة النساء: ١٣٥.

(٢) سورة المائدة:٨.

(٣) سورة الحجرات:.٩

(٤) سورة النور:٢.

والضنُّ بها والدفاع عنها إنما هما غضب لحرمة الله والوطن: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾(١)، ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢)

هكذا نرى أن المجال الذي يكون فيه العدل فضيلة محمودة، بل فريضة مكتوبة؛ هو المجال الذي تكون أنت فيه طرفًا ثالثًا وسطًا بين طرفين، فيكون واجبك أن توفي كلًّا منهما حقه غير منقوص ولا مزيد، وكل شيء من المكارمة والإيثار هنا هو الجور بعينه، هذا هو ما نسميه مقام الحكم والفصل بين الناس.

ونحن إذا تأملنا أكثر النصوص القرآنية التي وردت في مدح العدل والأمر به؛ وجدناها صريحة في هذا الباب: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾(٣)، ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾(٤)، ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾(٥).

أما حيث تكون أنت أحد الطرفين تتصرف في شيئك وتساوم في حقك، فهذا هو ما نسميه مقام المعاملة، وهذا هو المجال الذي تتوجه فيه دعوة القرآن إلى العفو والمسامحة، وإلى الإيثار والمجاملة، وهو المجال الذي يخرج فيه مبدأ العدل والمساواة من نطاق الفضائل والرذائل جميعًا؛ إذ يهبط من مستوى الواجبات إلى

---

(١) سورة البقرة: ١٩٠.

(٢) سورة النساء: ٧٥.

(٣) سورة النساء: ٥٨.

(٤) سورة المائدة: ٤٢

(٥) سورة ص: ٢٦.

مستوى الرخص والمباحات، وتبقى الفضيلة للفضل وحده: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

(١) سورة لقمان: ١٧.

أزمة الصدق

نحمده حمد الصادقين، ونقر بوحدانيته إقرار المعترفين المطيعين، ونصلي على الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد: أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الحكم والهدى حكمه وهداه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾(١)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾(٢)، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ وَعَدْلًا﴾(٣).

قال الله تعالى وهو أحكم القائلين وأعدل الحاكمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٤).

نزلت هذه الآية المحكمة والآيتان قبلها في أعقاب واقعة معينة، كان التزام الصدق فيها فتنة شديدة ومحنة قاسية لأصحابها.

ومن جرب الحياة ومشكلاتها عرف أن لها أحيانًا أزمات خلقية، يقف المرء فيها موزع الإرادة بين المثل العليا التي ينشدها ضميره، وحب السلامة أو الغنيمة التي تنزع إليها جبلته، ويناشده ضميره أن يقول كلمة الحق ولو كان مرّا، وتهتف نفسه به أنه لا نجاة له من ورطته إلا بالكذب! فإذا تذرع بالشجاعة، وقاوم هوى نفسه،

---

(١) سورة النساء: ٨٧.

(٢) سورة المائدة: ٥٠

(٣) سورة الأنعام: ١١٥.

(٤) سورة التوبة: ١١٩.

وقال مقالة الصدق فربما تمتد به الأزمة وتشتد؛ إذ يمتحن بعد ذلك امتحانا عسيرًا، ويزلزل زلزالًا شديدًا، حتى يقول: يا ليتني كنت كذبت.

من أحب أن يرى صورة حية من هذا الصراع النفسي العنيف، وأن يرى النهاية العجيبة التي انتهى إليها، فليستمع إلى فقرات من حديث كعب بن مالك، وهو يقص علينا نبأه ونبأ صاحبيه:

قال كعب-رضي الله عنه-: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، وكان الحر شديدًا واستقبل الناس فيها سفرًا بعيدًا، وكانت المدينة قد طابت ثمارها وظلالها فكنت أغدو لأتجهز للرحيل معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، وما زلت كذلك حتى سافر الجيش، وهممت أن أرتحل فأدركهم فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في المدينة أحزنني أني لا أرى فيها رجلا إلا متهمًا بالنفاق أو عاجزًا معذورًا.

فلما بلغت أن رسول الله ﷺ توجه قافلًا حضني همي وطفقت أقول: ماذا أخرج من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، وطفقت أتذكر الكذب! فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أطل قادما راح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فلما جلست بين يديه قال: (ما خلفك؟) والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا، ولكني والله لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به

عني؛ ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه أني أرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، قم حتى يقضي الله فيك».

فقمت واتبعني رجال جعلوا يقولون لي: لقد عجزت أن تعتذر.

فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم. رجلان قالا مثلما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. فذكروا رجلين صالحين لي فيهما أسوة.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة؛ فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حديقة أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فو الله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فما زلت أناشده، فما زاد على أن قال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت راجعًا، حتى إذا مرت أربعون ليلة إذا رجل يجيئني يقول: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت: أطلقها؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها، وقال لصاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فلبثت بعد تلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة، فبينما أنا على ظهر بيت من بيوتنا، بعد أن صليت صلاة الفجر وأنا على الحال التي وصف الله؛ قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض ما رحبت، سمعت صوت صارخ على الجبل بأعلى صوته: يا كعب ابن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أنه قد جاء فرج.

فانطلقت قاصدًا نحو رسول الله ﷺ وتلقاني الناس في الطريق فوجًا فوجًا، يهنئوني بالتوبة حتى دخلت المسجد، فسلمت على رسول الله ﷺ فقال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قلت: يا رسول الله أمن عندك أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله»(١)، قال كعب: وأنزل الله على رسوله في شأننا: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ -إلى قوله تعالى-: وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٢) اهـ.

هكذا قص علينا الوحي السماوي نبأ هؤلاء النفر الثلاثة، الذين صهرتهم نار الاختبار في فضيلة الصدق، فكشف اختبارهم عن معدن حر كريم. ولكنه لم يشأ أن يترك هذه الواقعة الفردية دون أن يستخرج منها عبرتها الكلية. ثم يلقيها درسًا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب المغازي- باب حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا}(٦/٣/ح٤٤١٨) ومسلم في كتاب التوبة- باب توبة أبي بن كعب وصاحبيه (٤/٢١٢٠/ح٢٧٦٩) والآيات من سورة التوبة: (١١٦-١١٩).

(٢) سورة التوبة: ١١٦-١١٩

على المؤمنين كافة ليكونوا معهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]، كأنه يقول: أَرأَيتم أيها المؤمنون كيف كانت عاقبة الشجاعة في قول الحق كيف انجلت غمرتها، وجعل الله منها فرجًا ومخرجًا؟! أرأيتم كيف أَسبغ الله على أصحابها نعمة الرضا، وسجل في كتابه شرفهم ذكرًا يتلى؟! ألا فلتكن لكم فيهم أسوة نعم الأسوة؛ فالزموا الصدق ولو توجستم فيه الهلكة، فإن فيه النجاة، واجتنبوا قول الزور ولو ظننتم فيه النجاة، فإن فيه الهلكة.

والحق أن العبرة في هذه الحادثة عبرة مزدوجة، ذلك أن أولها زلة وآخرها توبة، فهل يكتفي القرآن باستخراج العبرة من آخرها دون أولها؟!

كلا، إنه لو فعل ذلك لكان إغراء بالتهاون في العمل، وتشجيعًا على التبجح بالذنب وعدم الاكتراث به، ما دام سوف يمحوه الاعتراف به والتوبة فيه، وما هكذا يصنع المربي الحكيم، لذلك نرى الآية المجيدة تنطوي على وصيتين اثنتين:

وصية أساسية بالتوقي من الذنب، والاحتراس الكلي من الوقوع فيه، وهذا هو المطلوب الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

ووصية ثانوية لمن ألم بذنب ووقع فيه بألا يجمع على نفسه بين جريمة التقصير في الفعل، وجريمه الكذب في القول، ليكن أول همكم إذن أيها المؤمنون أن تكونوا من المتقين، فإن ألممتم بذنب فكونوا مع الصادقين.

---

(١) سورة التوبة: ١١٩

هكذا وضعت الآية الحكيمة للنفوس علاجها في حال قوتها وضعفها، وأشارت في الوقت نفسه إلى أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير.

الإسلام وكرامة الفرد

نحمده سبحانه كرَّم الإنسان بالإسلام، والصلاة والسلام على سيد الأنام، محمد، وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة والسلام.

بعد: هل عرف الناس قيمتهم الشخصية في نظر الإسلام؟ هل عرف الفرد الإنساني ما له في دستور الإسلام من منزل عزيز كريم؟

إن الكرامة التي يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية ليست كرامة مفردة، ولكنها كرامة مثلثة: كرامة هي عصمة وحماية. وكرامة هي عزة وسيادة. وكرامة هي استحقاق وجدارة:كرامة يشتقها الإنسان من طبيعته:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.(١)، وكرامة تتغذى من عقيدته: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)، وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾(٣)، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾(٤).

أوسع هذه الكرامات وأعمها، وأقدمها وأدومها تلك الكرامة الأولى التي ينالها الفرد منذ ولادته، بل منذ تكوينه جنينًا في بطن أمه، كرامة لم يؤد لها ثمنًا ماديًّا ولا معنويًّا، ولكنها منحة السماء التي منحته فطرته والتي جعلت كرامته وإنسانيته صنفين مقترنين في شريعة الإسلام.

---

(١) سورة الاسراء: ٧٠.

(٢) سورة المنافقون: ٨.

(٣) سورة الأنعام: ١٣٢.

(٤) سورة هود:٣.

ما حقيقة تلك الكرامة؟

إنها قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة، هي ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر، ذكرًا أو أنثى، أبيض أو أسود، ضعيفًا أو قويًّا، فقيرًا أو غنيًّا ومن أية ملة أو نحلة فرضت.

ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك، وعرضه أن ينتهك، وماله أن يغتصب، ومسكنه أن يقتحم، ونسبه أن يبدل، ووطنه أن يخرج منه أو يزاحم عليه، وضميره أن يتحكم فيه غيره، أو تعطل حريته خداعًا ومكرًا.

كل إنسان له في الإسلام قدسية الإنسان، له فيه حمى محمي، وحرم محرم، ولا يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه، وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه؛ بارتكاب جريمة ترفع عنه جانبًا من تلك الحصانة وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته، وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقد حماية القانون كلها؛ لأن جنايته ستُقدَّر بقدرها، ولأن عقوبته لن تجاوز مهدها، فإن نزعت عنه الحجاب الذي مزقه هو فلن تنزع عنه الحجب الأخرى.

بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه، كما يحمي أبناءه وأولياءه، إنه يحمي أعداءه في حياتهم ويحميهم بعد موتهم، يحميهم في حياتهم؛ إذ حرم قتالهم بدءًا بالعدوان، ويحميهم في ميدان القتال نفسه؛ إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال، ثم يحميه إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل، ولم لا؟ أليسوا أناسًا؟ فلهم إذن كرامة الإنسان.

هذه الكرامة التي كرم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها، هذه الكرامة التي جعلها الإسلام درعًا واقيًا يدرأ بها عن الإنسانية نزوات الطغاة والجبارين، هل أشعر الإسلام بها الضعفاء والمستضعفين؟

إن الكرامة نفسها شيء، والشعور بها شيء ثان، والشعور الحاد القوي شيء ثالث. حسن جميل أن تقرر الحق لأربابه، وتوضح لهم معالمه، ولكن أحسن وأجمل أن تمهد لهم طريق حمايته، وأن تجعل صورته في نفوسهم شعلة متقدة تدفعهم للذب عنه والاعتزاز به، فهل صنع الإسلام شيئًا لكي يغرس هذا الشعور الأبي في نفوس الأفراد ويوقد ناره في قلوبهم؟

نعم، إن الإسلام لم يكتف بأن عرف كل فرد حقه نظريًّا في هذه الحصانة الإنسانية، ولكنه أخذ يهيب به أن يدافع عن هذا الحق، وطفق يحرضه أشد التحريض على أن يقاتل دونه، وأن يضحي بنفسه في سبيله.

ألا فلتسمع صوت نبي الإسلام ﷺ: «من مات دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد»[1]؟

هل سمعت أقوى من هذا الهدى؟ بل لنستمع إلى كتاب الإسلام حين ينعي على المستضعفين إخلادهم إلى الذل طمعًا في السلام ورضاءهم بالهوان خوفًا من فراق الأوطان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى

(١) أخرجه الترمذي في جامعه- أبواب الديات- باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد(٣/ ٨٢/ح١٤٢١) من حديث سعيد بن زيد.

﴿ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [1]، هل سمعت أشد من هذا وعيدًا وتهديدًا؟.

قلنا: إن الكرامة الإنسانية - قبل كل شيء - سياج من الحرمة والعصمة والصيانة والحصانة، تعصم صاحبها من أن يهون على الناس ويضيعوا حقًّا من حقوقه، أو ينتهكوا حرمة من حرماته، ذلك هو جانبها السلبي الخارجي الدفاعي، أما في حقيقتها الإيجابية الانبعاثية، فإنها تاج من الشرف والنبل، يتقاضى صاحبه أن ينظر إلى نفسه نظرة احترام وتكريم، نظرة يعرف بها أن مكانته في هذا العالم كأنه السيد لا المسود، لا أعني سيادة الإنسان على الإنسان، فالناس في نظر الإسلام كلهم إخوة، كلهم سيد في نفسه لا سيادة لأحد على غيره، ولا سيادة لغيره عليه، وإنما هي من جهة سيادة عالمية؛ يسيطر بها المرء على مختلف الأشياء في البر والبحر والهواء، ألم ييسر له ما في السموات وما في الأرض جميعًا، ولم يسخر هو الشيء منها؟!

ثم هي من جهة أخرى سيادة ذاتية، لكل فرد فيما بينه وبين الناس سيادة تسوي برءوسهم ومنكبه بمناكبهم، ومن هذه السيادة المزدوجة تتألف المرتبة الثانية من الكرامة الانسانية، كرامة الحرية والعزة التي تأبى لصاحبها أن يهون على نفسه، وأن يذل لمخلوق غيره كائنًا من كان.

هذه المرتبة من الكرامة هي كسابقتها منحة طبيعية عامة تولد مع الإنسان، غير أنه لا يشعر بها على تمامها ولا يقدرها حق قدرها، إلا المؤمن الموحد الذي لا يعرف

---

(١) سورة النساء: ٩٧.

السجود لحجر ولا شجر ولا شمس ولا لقمر ولا لملك ولا لبشر، وهكذا يضم كرامة الإيمان إلى كرامة الإنسان؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وأخيرًا نرتفع من مستوى الطبيعة ومن مستوى العقيدة إلى مستوى السلوك والسيرة، فنلتقي بمرتبة ثالثة من الكرامة ينشئها المرء إنشاءً، ويكتسبها اكتسابًا بما يخطه لنفسه من نهج حميد، وما يحققه بجده وجهده من أهداف رفيعة مسترشدًا بأمر ربه وهداه، محاذرًا من خدع شيطانه وهواه، تلك هي كرامة العمل الصالح المصلح، وأنها لعلى درجات متفاوتة تسير طردًا وعكسًا على نسبة الإتقان والإخلاص في العمل ؛﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2].

اللّٰهم كما رزقتنا كرامة الإنسان وكرامة الإيمان، فارزقنا كرامة الإحسان، اللّٰهم آمين .. آمين.

---

(١) سورة المنافقون: ٨.

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

فاكهة المجالس

« الغيبة »

اللّٰهم لك الحمد، منحت عبادك التصرف الكامل، من اهتدى وسلك سبل السعادة نجا، ومن اغتاب جوزي بمثل فعله.. اللّٰهم صل وسلم على من حذر أُمته من الغيبة، محمد بن عبد الله، وارض اللّٰهم عن أَصحابه وآله الطيبين، والتابعين لهم بإِحسان إِلى يوم الدين، وبعد:

إنها فاكهة مسمومة-ونغمة خداعة مشئومة، تلك هي فاكهة المجالس السامرة لا يشبع طاعمها، ونغمة أحاديثها الساخرة لا يمل سامعها، ولكم سألت نفسي عن مجلس لا تقدم فيه هذه الفاكهة، ولا يسمع فيه هذا النغم! ولقد طال بي انتظار الجواب، حتى ظننت الأمر مرضًا وبائيًّا قد اندلع لهيبه في كل مكان، فمن لم تصبه ناره أصابه دخانه، يتلقاه سمعه إن لم يتلقفه لسانه، بل كدت أظن أن هذا الأمر وليد فطرة البشر، أو ربيب حياة المجتمع، وأنه ما دامت الشكوى منه متصلة في كل بيئة وعصر فلا طب لدائه، ولا أمل في شفائه!

ولكني سمعت الله تعالى يصف المؤمنين المفلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[1]، ويصف عباد الرحمن الذين ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[2]، فقلت: لا شك أن في الناس بقية من الخير، ثم نظرت إلى الجيل الأول من سلف

---

(١) سورة المؤمنون: ٣.

(٢) سورة الفرقان: ٧٢.

هذه الأمة الذين أدبهم محمد بأدب القرآن، فرأيتهم قد بلغوا من طهر الحديث وعفة القول أن الكلمة الواحدة من السخرية كانوا يعدونها كأكبر الأعمال الفاجرة، وازددت إيمانًا بجوهرة هذه النفس الإنسانية، وما فيها من عناصر نبيلة، وطاقات كمينة، وتراءَت في الآفاق العليا التي تستطيع أن تسمو إليها هذه البشرية الحائرة لو تحقق لها اثنان لا ثالث لهما: قيادة رشيدة توجهها الوجهة السليمة، واستجابة صادقة تمتد فيها الأيدي لمكافحة تلك اليد البرة الرحيمة، فمتى تجاوبت هكذا نفسية الداعي والمدعو، ومتى منح الطبيب مريضه نصحًا وشفقًا، ومنح المريض طبيبه طاعة وثقة، فهنالك تلتقي الكهرباء الموجبة والسالبة، فيتولد من بينهما ما شاء الله من حركة وحياة، وما شاء الله بعد ذلك من وثبات فسيحات نحو المعالي والأمجاد.

وهنا أخذت أتساءل عن الأسلوب الحكيم الذي اتخذه طبيب النفوس الأعظم، ليطهر نفوس المؤمنين ومجالسهم من هذا الإثم، فوجدته قد سلك إلى ذلك مسالك عدة: دعاهم باسم الحجة والبرهان، ثم دعاهم باسم الإيمان، ثم دعاهم باسم الحس والوجدان.

دعاهم باسم الحجة والبرهان: أيها السامرون الساحرون الذين نصبوا أنفسهم حكمة فيما بينهم وبين الناس-فلأنفسهم أبدًا الرضا والغناء والحمد، ولغيرهم أبدًا السخط والهجاء والذم- هل أعددتم أنفسكم حقًّا لمنصب هذا الحكم؟! هل

أحطتم علمًا بما فيه تحكمون؟! إنكم تعرفون من شئون الناس جانبًا ويفوتكم منها جوانب، وإنكم ترضون من أنفسكم لمحات من الخير، وتنسون فيها كثيرة من المعايب، فهلا بدأتم بالحكم على أنفسكم قبل أن تحكموا على غيركم؟! وهلا شغلتكم عيوبكم عن عيوب إخوانكم؟! وهل أمنتم أن ينقلب الميزان عند الله فيكون الحكم عليكم لا لكم؟! " ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾[1].

ثم دعاهم باسم الإيمان: أيها الهمازون اللمازون، الغيابون العيابون، إنكم لا تدرون كُنْه ما تفعلون، ولو فكرتم قليلًا لعرفتم أنكم لا تعيبون إخوانكم، ولكن تسبون ربكم، نعم، إن أكثر ما تتفكهون به من عيوب الناس هي عيوب لا ذنب لهم فيها؛ عيوب ألوانهم، عاهات أبدانهم، مظاهر فقرهم ورقة حالهم، خمول أنسابهم، مهنة آبائهم وأمهاتهم، سوء أسمائهم وألقابهم!.

ألم تعلموا أن الله هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وركبه في الصورة التي اختارها له، وأنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء، ويقبضه عمن يشاءُ، وهو الذي قسم معيشة الناس، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وهو الذي أخرج الناس من أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، فلم يكن لأَحد منهم الخيرة في نبل مولده أو خسته، وفي شرف بيئته أو ضعتها فمن تعيبون إذن؟! ألستم تعيبون الرحمن في

(١) سورة الحجرات: ١١.

صنعته، وتتعقبون حكمه في تدبيره وأسلوب قسمته؟! أكفر إذن بعد إيمان؟! أعودة إلى الجاهلية بعد أن رفعتم بنعمة الإسلام: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١).

وأخيرًا دعاهم باسم الحس والوجدان المغروس في فطرة كل إنسان، وها هنا كشف عن الأبصار غطاءها، وأزاح عن الحقائق نقابها، وأخرج جسم الجريمة ماثلًا في سوءة بادية، تقذى بها العيون، وريح منتنة، تزكم منها الأنوف، وطعم گريه تعافه الأذواق وتغنى منه النفوس.

نعم من لم يعرف كنه جريمة الغيبة، ولا حقيقة مرتكبيها، فلينظر إليها وإليهم في مرآة القرآن، هنالك يرى، ويالهول ما يرى؛ يرى خوانًا ممدودًا قد ألقيت عليه فريسة من البشر، ويرى حول الخوان شرذمة جلودها جلود البشر، وقلوبها قلوب النمر، وقد جعلوا ينالون من هذه الفريسة، لا رميًا بالسهام والنبال، ولا طعنًا بالخناجر والنصال، ولكن قضمًا بالأسنان، ولعقًا باللسان، فعل الضواري بالرمم!

أمن البشر تراهم إذن، أم من فصيلة أخرى تأكل لحوم البشر؟، ولو أنهم لاقوا فريستهم وجهًا لوجه، ونبذوا إليها على سواءٍ، لقلنا إن فيهم بقية من شهامة، ولكنهم لقوها "مجردة من كل سلاح، عاجزة عن كل دفاع، فأتوها من قبل ظهرها، في ساعة غفلتها، بل في وقت موتها، فأقبلوا عليها نهشًا ومصًا وعرقًا، فهل رأيت

(١) سورة الحجرات: ١١.

أفجر وأغدر؟! أو هل رأيت أرذل وأنذل؟! وما ظنك بعد هذا كله لو كان المأكول أخًا للآكلين، أخًا في أسرة النسب أو أخا في أسرة الدين؟!

تلك هي جريمة الغيبة كما صورها القرآن الكريم في كلمات بليغة خالدة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1].

(١) سورة الحجرات: ١٢.

الاسلام والرق

« **محمد محرر البشرية** »

الحمد لله جعل الحرية من صفات المؤمنين، وصلاة ربي وتسليماته على من جاء بالكتاب المبين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وإخوانه النبيين والصديقين ولاشهداءِ والصالحين.

أما بعد: فقد عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقي سواد الليل وبياض النهار!

وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية؟! وهل كانت حملته الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشيء أو لأحد غير الله؟!

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية، فكيف يكون من صنع الإسلام الذي أعلن كرامة الإنسان؟! والاستعباد تبديل للفطرة فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذي هو دين الفطرة؟!

وإن تعجب لشيء فاعجب؛ لأن الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم أنشئوا الرق أبيضه وأسوده، وأنهم هم أفشوه ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها؛ من طريق الخداع والتمويه ومن طريق الاختلاس

والاغتصاب، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد، فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب.

فلندع ذكر هذا الماضي القريب الذي يعرفه الجميع، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام:

لقد كانت هناك شرائع في الشرق والغرب، في اليونان وفي الرومان، وفي غير اليونان والرومان، فتحت باب الرق على مصراعيه، فكان جزاء القاتل أن يكون عبدًا لولي الدم! وكان المدين الذي يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكة لدائنه، وكان السارق الذي يضبط عنده متاع يصبح رقيقًا لرب المال، ومصداقه في قصة سيدنا يوسف -عليه السلام-: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء، وأن يبيع من شاء، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبدًا -الدهر- إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته.

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد خاتم النبيين، وقدوة المصلحين، فماذا صنع محمد حين جاء بالإسلام؟

---

(١) سورة يوسف: ٧٥.

إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها، ولكنها ثورة حكيمة منظمة، كثورته على الخمر، وثورته على الربا، وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة، والرذائل الموروثة المستحكمة.

لقد كانت سوق الرق في تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل، موصدة المخارج، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش في النار، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة، والداءُ أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة!

فانظر إلى الجهاز الذي أعده نبي الإسلام لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتأكلة، إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة: نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لينطلق منها كل من استطاع النجاة، وميازيب من الغيث صبها على من بقي في الدار، لتكون النار عليهم بردًا وسلامًا ريثما يتيسر لهم الخروج منها، وسأفسر لك ذلك.

فأما النطاق الذي ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة، فذلك هو الدواء الواقي الذي وقف به سير الداء حتى لا تسري عدواه إلى غير المصابين، ذلك هو القانون الذي منع به استرقاق الأحرار، وأَمَّنهم منه بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب، فاليوم لا الخطف والسلب، ولا البيع والشراء، ولا التغلب في المشاجرات والغارات، ولا تحكم رب الأسرة، ولا العجز عن وفاء الدين، ولا السرقة ولا

القتل- لم يعد شيء من ذلك كله - منذ ظهر الإسلام - يصلح مبرِّرًا لاستعباد الإنسان.

ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء، إلا في حالة الاضطرار وخشية العنت، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ بالعلاج الشافي من الرق القائم بالفعل، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء.

غير أن ها هنا شبهة تجول في الخواطر، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها، وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها.

أما الشبهة فهي أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التي أشرنا إليها - والتي كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد- قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذة صغيرة لم يغلقها، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة، وهي التي يعتدي فيها الكفار على بلاد الإسلام، أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين في هذه الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث: إما بإطلاق سراحهم، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارًا، وإما بقتلهم؟

والجواب: أن الأمر ليس كما يظنه الناس في هذه الخطط الثلاث؛ فالواقع أنها في نظر الإسلام ليست سواء في المشروعية، فنحن إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم لم

نجد فيه أثرًا لقتل الأسير ولا استرقاقه، وإنما نجد له فيه مصيرًا واحدًا كرمه هو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل؛ ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[1].

كما أننا إذا تتبعنا سنة الرسول الرحيم لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا في حالة شاذة نادرة، كان الأسير فيها معروفًا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين، فهو ليس قاعدة عامة، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين، وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم عقوبة: مجرمي الحرب.

بقي الاسترقاق، وواضح أنه يلي القتل في القسوة والشناعة، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة، ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة، فإن رفع الرقيق إلى مستوى الحرية يعد إدراجه له في زمرة الأحياء، بعد أن كان محسوبة في عداد الأموات؟

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الإسلامي ولا في نصوصه ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم، أو يجعله في نظرهم سواء هو، والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية، فإن لجأ الإسلام يومًا إلى استرقاق الأسير؛ فإنما يكون ذلك منه نزولًا على حكم الضرورة اتقاء لخطره وكسرًا لشوكته وشوكة قومه، على أنه لا

(١) سورة محمد:٤.

يجعل ذلك مصيره النهائي، وإنما يتخذه إجراء مؤقتًا، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه، ويلح في المطالبة بتحقيقه ألا وهو التحرير الكامل.

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التي أعدها الإسلام لمكافحة الرق، وأعني بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية، ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾[1] وقال ﷺ: « منْ أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا من أعضائه من النار »[2].

ومفتاح ثان هو مفتاح خزائن الدولة؛ إذ جعل فيها سهمًا مقررًا في كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين.

ومفتاح ثالث، هو مفتاح قانون الكفارات، وهو القانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا، كالحنث في اليمين، والفطر في رمضان، والقتل الخطأ، وغير ذلك، ومن أهم هذه الأنواع: كفارة الإساءة التي تقع من السيد في حق العبد نفسه، وفي ذلك يقول رسول الرحمة ﷺ: « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه »، هذا جزاء اللطمة أو الضربة، أما الجرح أو تشويه الجسم

---

(١) سورة البلد: ١١-١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه -كتاب الإيمان- باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده(٣/١٢٧٨/ح١٦٥٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فإن حكمه عند أكثر الأمة أنه يصير العبد حرًّا بمجرد إصابته، فينزع من ملك السيد قهرًا عنه، وكذلك إذا كلفه سيده أعمالًا فوق طاقته وتكرر منه ذلك.

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامي الرحيم، لقد رأينا أبوابًا فتحت أمام الحرية، ورأينا أبوابًا أغلقت دون الرق، بين هذين الطرفين ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ولكنهم لم يصلوا إليه بعد، إنهم هنالك ينتظرون دورهم في استنشاق هواء الحرية الطلق، فهل صنع الإسلام شيئًا لهذه الفئة في فترة الانتظار؟

نعم. لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية، وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم في هذه الفترة يحيون حياة الإنسان، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات؛ ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادمهم إلى المستوى الذي يعيشون فيه هم أنفسهم، هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين ﷺ:« إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون،واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم »[1].

هذا هو موقف الإسلام من الرق:

ا-منع لإنشائه وابتدائه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاي في صحيحه- كتاب الإيمان- باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك(١/١٥/ح٣٠) ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان(٣/ ١٢٨٢/ح١٦٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

٢-عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه.

٣-عطف سابغ عليه في أثناء محنته وبليته.

أما بعد: فهل من منصف يقولها معي: أَما والله لعبد في ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار في كل نظام !

الرسول في القرآن

لك الحمد يا رب ولك الشكر سبحانك، لا نحصي ثناءً عليك، والصلاة والسلام على رسولك الذي أنزلت عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[1]، ورضي الله عن آله الأبرار وصحابته الأطهار، والتابعين الأخيار.

أما بعد: فإن الإيمان بالرسول صنو الإيمان بالله، وطاعة الرسول من طاعة الله، وسنة الرسول بيان وتفصيل لكتاب الله، والرضا بحكم الرسول شرط أساسي في صحة الإيمان بالله.

الإيمان بالرسول صنو الإيمان بالله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[2] وطاعة الرسول من طاعة الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[3] وسنة الرسول بيان وتفصيل لكتاب الله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾[4] والرضا بحكم الرسول شرط في صحة الإيمان ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا

(١) سورة العلق: ١.

(٢) سورة النساء: ١٥٠.

(٣) سورة النساء: ٨٠

(٤) سورة النحل: ٤٤.

يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1]

هكذا نرى الرسول في مرآة القرآن، فليست كل مهنته أنه حمل إلينا كتابًا سماويًّا، ويبلغنا نصًّا قدسيًّا، وكفى، لكنه إلى ذلك مشرع ومعلم وقاض وحاكم، وأن قضاءه وحكمه فهمًا لروح القرآن، كقضائه وحكمه تطبيقًا لنص القرآن، كلاهما واجب القبول والنفاذ: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾[2]، ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾[3].

ولسنا ننكر أن القرآن هو دستور الإسلام، وهو أساس قوانين الإسلام ولكن هل يغني الأساس عن البنيان؟! هل يغني الدستور عن القوانين النابعة منه، والقواعد المنظمة له؟! بل هل تغني القوانين والقواعد كلها عن مثال حي، وزعيم أمين قوي، تكون مسيرته هي القدوة الحسنى، فينهج بتلك القوانين مناهجها المثلى، ويتولى بنفسه تطبيق نصوصها، وتحقيق مغزاها وروحها، على الوجه الذي أراده واضعها الحكيم؟!

---

(١) سورة النساء: ٦٥.

(٢) سورة النساء: ١٠٥.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٩.

إن الذي يزعم أنه سوف يستغني بكتاب الله عن سنة رسول الله يعطل الكتاب والسنة جميعًا، نعم، إنه سوف يعطل كثيرًا من نصوص القرآن، فلا يستطيع فهمها.

أما تعطيله لحكم القرآن، فذلك أن القرآن نفسه هو الذي قلد الرسول منصب الزعامة والإمامة، فجعله للناس قدوة بقوله وفعله، وألزمهم طاعته في أمره ونهيه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[2]، فمن أعرض عن سنته فقد عزله عن الإمامة التي ولاه الله، وقد استوجب العقوبة التي قررها كتاب الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

وأما تعطيله لفهم القرآن، فذلك أن القرآن يحيل في كثير من نصوصه على السنن العملية التي سنها الرسول ﷺ أو التي سنها النبيون من قبله وأقرها هو، فلنسأل الذي يدعي الاكتفاء بالكتاب عن السنة: في آية من كتاب الله يجد بيان أشهر الحج المعلومات، وأيام الرمي المعدودات، والأشهر الأربعة المحرمات؟! فإن لم نأخذ بيانها من السنة، فهل تبقي هي بعد ذلك أمورًا معلومة، أو تصبح مجهولات مبهمات؟!

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

(٢) سورة الحشر: ٧.

(٣) سورة النور: ٦٣

بل إننا نسأل الذي يزعم هذا الزعم: كيف يريد منا أن نؤدي صلاتنا وزكاتنا؟! فإن كانت كما يصلي الناس ويزكون قلنا له: أَين تجد في كتاب الله صورة هذه الصلاة، في أسلوب افتتاحها واختتامها وفي ترتيب جلوسها وقيامها، وفي عدد ركعاتها وسجداتها؟! وأين تجد في كتاب الله صفة هذه الزكاة في مقاديرها ومواقيتها وحدود نصابها؟!

إن ذلك كله لا وجود له إلا في تعليم الرسول الأمين الذي بعث ليبين للناس ما نزل إليهم، فهو الذي صلى ثم قال: « صلوا كما رأيتموني أصلي »[1] رواه البخاري. وهو الذي أدى مناسكه ثم قال: « لتأخذوا عني مناسككم »[2] رواه مسلم.

أما أن يكون ذلك الزاعم يريد أن يكون منطقيًّا مع نفسه – كما يقولون– فليمحُ هذه الحدود والقيود في الشعائر كلها، ولنفسه، ولكل أحد أن يختار في عبادته الوضع والمنهج الذي يحلو له، وعندئذ لن تلومه على تلك الفوضى التي ينفرط بها عقد الأمة، وتتفكك بها وحدتها الجامعة، فلعل ذلك لا يعنيه، وإنما نسأله: هل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه -كتاب الأذان- باب الأذان للمسافر، إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال، في الليلة الباردة أو المطيرة (١/١٢٨/ح٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الحج- باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا، وبيان قوله صلى الله عليه وسلم «لتأخذوا مناسككم» (٢/٩٤٣/ح١٢٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

حقق بذلك وجهة نظره؟!وهل استمسك بالنص الحرفي للقرآن في هاتين الفريضتين كما يدعي؟!

اللّٰهم لا؛ فإن القرآن لم يقل لنا: أقيموا صلاة ما، وآتوا زكاة ما، ولكنه قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فأشار إلى شيء معهود ووضع معين مقرر عند المؤمنين كافة، بل صرح بذلك تصريحًا بليغًا فقال في مقدار الزكاة: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾[1]، وقال في صفة الصلاة: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾[2]، أي فصلُّوا على الطريقة التي علمكم الله إياها، والله ما علمنا إياها في القرآن، وإنما علمها إيانا رسوله في بيانه للقرآن.

فانظر إلى هذا التشريف العظيم الذي رفع به القرآن شأن التعليم النبوي فسماه تعليمًا من الله، كما رفع شأن البيعة التي بايعتها الأمة لنبيها فجعلها مبايعة الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾[3].

هما إذن وحيان: وحي نص إلهي يتلى في القرآن، ووحي توجيهي عملي في غير القرآن، وقد سمى الله كليهما أمرًا سماويًا مثلا، فقال تبارك اسمه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) سورة المعارج: ٢٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٩.

(٣) سورة الفتح: ١٠.

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[1]، فالكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة، فمن أعرض عنها فقد ببعض الوحي وكفر ببعض.

نعم، إن الرسول في غير ما يوحى إليه بشر يخطئ ويصيب، ولكنه حتى في حال خطئه يمتاز عن سائر البشر بدرجتين اثنتين:

(الأولى) أن خطأً في الغالب إنما يسمي خطئًا بالقياس إلى الحكمة الإلهية التي يمتاز بها علم الخالق من علم المخلوق، أما بالنسبة لعلم البشر فهو مثال الرشد والسداد.

(الأخرى) أنه حتى في هذه الفروق الدقيقة لا يستقر ولا يقدر على ما هو خلاف الأولى، بل لا يلبث الوحي أن يوجهه إلى ما هو أرقى وأسمى، وهو في كل مراتبه وحالاته قد فضله الله وآثره علينا، وفرض علينا تكرمه وتوقيره في غير غلو ولا إطراء: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾[2]، ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾[3]، ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[4]

---

(١) سورة النساء: ١١٣.

(٢) سورة الفتح: ٨، ٩

(٣) سورة الحجرات: ٢.

(٣) سورة النور: ٦٣

اللّٰهم إننا لا غنى لنا طرفة عين عن هدي رسولك المبعوث رحمة للعالمين، اللّٰهم فآته الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

نشأة الرسول

نحمدك اللّٰهم ونستعين بك ونصلي ونسلم على رسولك محمد، وعلى آله وأصحابه.

وبعد: في مطلع العام الثالث والخمسين قبل الهجرة، وهو العام الحادي والسبعون بعد الخمسمائة، من ميلاد كلمة الله عيسى بن مريم ﷺ في فصل الربيع من ذلك العام، بل في قلب ذلك الاعتدال الربيعي، في العشرين من شهر نيسان -أبريل- في فجر ليلة مقمرة، من ليالي التربيع الثاني من شهر ربيع الأول في الساعة التي يغيب فيها بدر السماء أو تميل إلى المغيب، في تلك الساعة، يتنفس الصبح في أرض مكة، عن بدر إنساني هو أتم البدرين نورًا، وأعظمهما يمنًا وبركة.

وتجيءُ البشارة إلى عبد المطلب، شيخ قريش وزعيمها بأن آمنة بنت وهب - زوج ولده الصغير عبد الله الذي فقدته منذ سبعة أشهر- قد أقر الله عينها بوليد صبيح الطلعة مشرق الجبين، فيخف عبد المطلب ليسمع ويرى حفيده في مهده، ويسمع من أمه ما كان لها في حمله ووضعه من آيات اللطف والتكريم، ولا تتم الأم حديثها حتى يتناوله جده منها فرحًا متهللًا، ويطير به ليؤدي واجب الشكر لله، ثم يعيده إلى أمه.

وتجيء المراضع من البادية على عادتهن في التماس الرضعاء، فلندع حليمة السعدية - رضي الله عنها - تقص علينا كيف قدر لها أن يتربى في حجرها ذلك المولود الكريم؟

قالت حليمة، فيما يرويه لنا محمد بن إسحاق وغيره: قدمت إلى مكة في نسوة من بن سعد بن بكر في سنة شهباءَ -لا زرع فيها ولا مطر- ومعي زوجي، وابن لنا رضيع، ومعنا شارف - ناقة مسنة هرمة - والله ما تبض بقطرة لبن، وصبينا يبكي لا ينام من الجوع، ولا ننام نحن من بكائه، فخرجنا نلتمس الرضعاء فوالله ما علمت امرأة منا إلا قد عرض عليها «محمد» فتأباه، تقول: يتيم! وماذا عسى أن تصنع لنا أمه وجده؟

وكان أن أخذت كل امرأة رضيعًا، وبقيت أنا لا أجد رضيعًا غيره فقلت لصاحبي- تعني زوجها-: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحباتي وليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم، قالت: فذهبت فإذا الطفل نائم، فخشيت أن أوقظه، فدنوت منه رويدًا، ووضعت كفي على صدره، ففتح عينيه وابتسم، وإذا ثديي حافلتان باللبن، فناولته ثديي اليمنى فأقبل عليها، ثم أعطيته اليسرى فأبى، فأعطيت؟ أخاه، وكان ذلك دأبه أبدًا، لا يأخذ إلا الواحدة ويترك لأخيه الأخرى.

لله أنت يا محمد! أهكذا فُطرت على القناعة والعدل، وعلى كراهة الاستئثار بالفضل: لقد طبت في المهد صبيًّا، كما طبت رجلًا سويًا، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

قالت حليمة: فلما أخذته إلى رحلي في مكة قام صاحبي إلى شارفنا -ناقتنا- فإذا هي حافل فيحلبها، فشرب و شربت، وبتنا بخير ليلة.

فقال صاحبي: يا حليمة، والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير؟ قالت: ثم عدنا إلى باديتنا، ولا أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، ولكننا منذ قدمنا به كانت غنمي تروح علي شباعًا حوافل حتى كان الناس يقولون لرعيانهم: اسرحوا حيث تسرح غنم حليمة، فتروح غنمهم جياعًا، وتروح أغنامنا شباعًا، ولم نزل نتعرف من الله الخير والزيادة طيلة مقامه عندنا.

ويبقى الرضيع عند حليمة زمنا بعد فطامه، يتشبع من هواء البادية النقي، وينطبع لسانه على لغتها الفصحى، ثم يعود إلى مكة ليكون في حضانة أمه سنة أو تزيد، حتى إذا سلخ السادسة من عمره فقد حنان تلك الأمومة، وانتقل إلى كفالة الجدودة والعمومة، وهو في كل ذلك ينمو ويترعرع في رعاية الله، وتتكامل قواه البدنية والعقلية، وصفاته الخلقية والأدبية سواء.

وألقى الله عليه محبة الناس، وهم في عجب وإعجاب يتساءلون: ما هذا الصبي الفتي الذي يشب شبابًا لا يشبه الغلمان؟! ما هذا الفتى العفيف الحيي الذي يتجنب من عبث الشباب ومجونهم ما لا يتجنبه الشباب؟ حتى الغناء والسماع إذا اتفق له شهود مجلس من مجالسهما السامرة لا يلبث أن يغلبه النعاس حتى يصبح! يا عجبًا لهذا الفتى الصدوق الوفي الذي لم تجرب عليه كذبة، ولم تحفظ عنه زلة، حتى اشتق لقبه من اسم الأمانة والوفاء! ثم يا عجبًا لهذه النظرات العميقة البعيدة، وهذا الصمت المهيب الوقور! تالله إن لهذا الفتى شأنًا، إنه لا تقف به ها هنا همته، ولا

تحد بهذه الأرض نظرته، لكأن الله يصنعه على عينه ليعده لأمر جلل، كأنما يريد أن يجعل منه مثالًا حيًّا، توجد فيه المثل العليا، وتقوم على هديه دولة الفضائل الكبرى! فلننتظر ما يخبئه القدر لهذا الناشئ، وما يخبئه القدر للناس فيه!

هكذا كل من رآه منذ طفولته وصباه، كان يتوسم فيه كل خير ويعقد عليه كل أمل صالح، وتمر السنون، فيصبح الناشئ يافعًا، ثم يصبح اليافع في مجتمعًا، وهذه الفضائل النفسية لا تزداد فيه إلا تمكنًارورسوخًا، وتبرز فيه إلى جانبها فضائل من فصائل أخرى.

ألا تراه منذ الثانية عشرة من عمره يشارك الرجال في الأسفار واحتمال الأخطار، وفي التجارة وتدبير المال؟! ألا تراه في سن العشرين يجلس جنبًا إلى جنب مع شيوخ قريش وقادتها في مجالس التحكيم، ويشاركها في عهد الأحلاف والعهود المبرورة إنصافًا للضعفاء، ونصرًا للمظلومين، وكفالة للأمن والسلام؟! ثم يكون زواجه في سن الخامسة والعشرين فرصة لظهور مواهب جديدة، في جانب من حياته لم تكشف من قبل.

نعم، لقد برهن في مدى ربع قرن من حياته على أنه خير زوج وأكرمه وأبر والد وأرحمه.

وأخيرًا يكون تحاكم القوم إليه – وهو في الخامسة والثلاثين بشأن الحجر الأسود– مظهرًا لما كمن فيه من مواهب السياسة الرشيدة، والقيادة الرفيقة والحكم العادل الحصيف الذي تأتلف عليه القلوب، وتنطفي به نيران الضغائن والحروب.

وهكذا جربت شمائله المطهرة؛ في نفسه، وفي أسرته، وفي عشيرته، وفي أسلوب سياسته وإمرته، فبرز في كل مجال إنسانًا كاملًا، ولم تبق أمامه الآن إلا التجربة الكبرى التي تتجلى فيها ربانيته الكاملة، كما تجلت من قبل إنسانيته الكاملة.

ها هو ذا يناهز الأربعين، وها هي ذي لوحة روحه تصبح مرآة صافية تنطبع فيها الحقائق الغيبية، حتى إنه لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم ها هو ذا تحبب إليه العزلة أحيانًا عن ضوضاء الخلق، ليأنس فيها بسِّر صوت الحق، وما هو إلا أن فاجأه الحق في الخلوة، ليلقي إليه مقاليد العلم والحكمة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[1].

إيه يا ابن عبد الله، يا أكرم خلق الله على الله، متى الساعة التي تكتحل فيها أعيننا بلقياك؟ وما والله ما أعددنا لهذه الساعة كبير عمل غير أننا نحبك، ونحب من يحبك، ونحب العمل الذي يقربنا من حبك، رضينا بربك ربًّا، وبدينك دينًا، وبك نبيًّا ورسولًا، صلوات الله عليك، وعلى سائر إخوانك النبيين والمرسلين.

---

(١) سورة العلق: ١-٥

الهجرة النبوية بداية عهد جديد للإنسانية

الحمد لله الذي فضلنا إِذ جعلنا من أُمّة خير الأَنام، محمد بن عبد الله، الذي أَمره بالهجرة لإِظهار الحق، ونصلي ونسلم عليه وعلى آله وأَصحابه أَجمعين، ومن تبعهم بإِحسان إِلى يوم الدين.

وبعد: فإن تلك الهجرة المباركة كانت نقطة تحول جوهري في حياة المسلمين؛ ذلك أن الإسلام في مكة كان دينًا بلا دولة وحقًّا بلا قوة، لم يكن المسلمون يومئذ يمثلون شعبًا، ولا جمهرة غالبة في الشعب، أولئك أفراد يمتازون بصفاء عقيدتهم وطهارة أخلاقهم، يعيشون في قومهم شبه غرباء، ليس لهم في قيادة المجتمع قليل ولا كثير، كان الحق والخير في جانبهم، أما الأمر والنهي والسلطان والحكم، فكانت بيد القوة الباطشة، والمادة الجشعة، والميول المستهترة، فكانوا كلما خلا بعضهم إلى بعض تبادلوا الشكوى فيما بينهم من ظلم المجتمع وفساده، وزيغ العقول وانحرافها، وانحدار الأخلاق وإسفافها، وجعلوا يتحركون إلى تحقيق المثل العليا التي بها يؤمنون، والتي على شعاع من أملها يعيشون، وما زال الحق منذ ظهرت سيماه على وجوههم، يلاقي من قوة الباطل تريد أن تطفئ نوره في أول بزوغه، وأن تقتلع شجرته فور غرسها، ولكن الله أوى نوره إلى مشكاته، فجعل ينتشر رويدًا رويدًا،

وصان شجرته الطيبة بصوان من عنايته، فأخذت ترسخ أصولها، وتمتد فروعها: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾[1].

وهكذا، برهنت دعوة الإصلاح لهذه العواصف والأعاصير على أنها خلقت للبقاء والخلود، وأثبتت صلاحيتها للانتقال من حقول التجارب الضيقة في مكة إلى فضاء الأرض الواسعة وإلى الآفاق العالمية.

كان يوم الهجرة إلى المدينة إيذانًا بأنه قد آن للحق المستخفي أن يظهر ويعلو، وللحريات المكبوتة أن تتنفس، وللعدالة المضيعة أن تقف على قدميها، وأن تمسك ميزانها بيديها، وللجماعة المستضعفة الخائفة أن تتبدل من خوفها أمنة، ومن ضعفها قوة، فأصبح اسم الله يذكر من أعلى المنابر، بعد أن كان يذكر سرًّا أو نجوى، وأصبح لأنصار الحق دولة، بعد أن كانوا قليلًا مستضعفين في الأرض، يخافون أن يتخطفهم الناس، وهكذا كانت الهجرة المحمدية فاتحة في تاريخ المسلمين.

وأما أن هذه الهجرة المباركة كانت في الوقت نفسه -مفتاح سعادة للبشرية كلها- فذلك أمر يعرفه كل من عرف الأسس الجديدة التي قامت عليها معاني هذه الكلمة، فالوطنية - في قاموس المدنيات الفاضلة - مبدأ يؤخي بين سكان البلد الواحد من مختلف الأجناس والعناصر والأديان والمذاهب والنزلاء منهم والمستوطنين، ويقف بهم جميعًا أمام قانون العدالة على قدم التساوي في جميع

(١) سورة الفتح: ٢٩.

الحقوق والواجبات القومية، هذا المبدأ المثالي، الذي يحلم به أنصار الإنسانية العالمية، والذي لا يزال دون تحقيقه في عصرنا هذا شوط بعيد، حتى في أشد الدول تحمسًا له وأكثرها زهوًا وافتخارًا مبلغ تقدمها في الحضارة، هذا المبدأ المثالي جعل الإسلام حقيقة ماثلة في غداة الهجرة الكريمة، فلأول مرة في تاريخ الدول الدينية رأينا في المدينة المنورة أمة واحدة ومناخية، تضم بين جنباتها العربي والفارسي والرومي والوثني واليهودي والمسيحي والمجوسي والصابئي، شعارهم جميعًا تحت راية الإسلام: الدين لله، والوطن للجميع.

أما الهدية العظمى والنعمة الكبرى التي منحتها السماء أهل الأرض على أثر الهجرة النبوية، والتي لم تظفر البشرية مثلها من قبل ولا من بعد، فإنها تتمثل في الدستور الجديد الذي جاء به الرسول المهاجر-صلوات الله عليه- فقد كان التشريع في مكة يهدف إلى ثلاثة مقاصد لا زائد عليها: (إصلاح العقيدة - وتحديد بعض رسوم العبادة - وإرساء القواعد الأولية لمكارم الأخلاق ولا سيما في السلوك الشخصي).

فلو أن مهمة الدعوة الإسلامية ختمت قبل يوم الهجرة ما كان للتشريع الإسلامي كبير فضل على غيره من التشريعات، ولحرمت الإنسانية إذ ذاك الشطر المدني لهذا التشريع، وهو نفس الشطرين وأدقهما وأحوجهما إلى الإرشاد السماوي؛ ذلك أنه منذ الهجرة قد تشعبت مصادر الناشئة اجتماعيًا واقتصاديًّا وسياسيًّا ودينيًّا.

فجاءت التشريعات الجديدة وافية بكل هذه الحاجات، فضلًا عما أضافته إلى المقاصد المكية من تفصيل وتحسين وتكميل، وهكذا لم تغادر مجالًا للنشاط العملي أو الفكري في الحقائق العليا إلا فصلت فيه بين الخير والشر والحق والباطل، في نصوص وقواعد هي آية في السداد والحكمة، وهي في الوقت نفسه غاية في المرونة والمواءمة لظروف الإنسانية في جميع بيئاتها وعصورها، مهمة خطيرة، بل معجزة كبيرة يعترف علماء التشريع المقارن بأنه قد عجزت عن بعضها سائر التشريعات السابقة واللاحقة، ولم ينهض بها على الوفاء والتمام إلا الشريعة الإسلامية في عهدها الهجري السعيد، ومن أجل ذلك استحقت أن تنعت في ختام الأمر بأنها: الدستور الكامل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]

هذه قبسات من أنوار الهجرة المشرقة، ونسمات من بركاتها على الناس عامة، وعلى العالم الإسلامي خاصة.

وإنه ليسعدنا – أبناء الإسلام بوجه أخص– أن نحتفل بذكرى يوم الهجرة، ونحن في فاتحة عهد جديد للإصلاح، نقتفي الخطوات الأولى للمصلح الأول، والقائد الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ.

(١) سورة المائدة: ٣.

على أننا لن يكمل اغتباطنا ولن تتم قرة أعيننا حتى نتابعه في سائر خطواته، فنعود إلى الاعتراف من ينبوع دستوره الخالد في كل شئوننا وتصرفاتنا، وما ذلك على أبطال النهضة بعزيز.

كيف هاجر الرسول؟

لك الحمد يا إلهي، ولك الشكر، ولك الثناءُ الجميل، عَزَّزْت دين الإِسلام بهجرة سيد الأَنام .. اللّٰهم صل على عبدك ورسولك الذي هاجر من وطنه إِلى المدينة، ابتغاءَ وجهك الكريم، ولإِعلاءِ كلمتك .. وعلى آله وأصحابه، ذوي الفضل والجاه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد: تنطوي الساعات والأيام، وتعقبها الشهور والأعوام، والحق ماض في دعوته وجهاده، والباطل سادر في مقاومته وعناده، وتتطور المقاومة، فتخرج من موقفها السلبي بإزاء الدعوة المحمدية إلى موقف إيجابي، دعوة بإزاء أنصارها، فإذا الإنكار والتكذيب تنكيل وتعذيب، وإذا الإباء والعناد تشريد واضطهاد، حتى صاحب الرسالة نفسه – وهو من هو مهابة وحسبًا – لم يمنعه حسبه وعزته في قومه من طيش المعارضة ونزقها، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما– : بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه وجعل يخنقه خنقة شديدة، فأقبل أبو بكر حتى أخذ منكبيه ودفعه عن النبي قائلًا: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ﴾[1].

ولم تكن القرى حول مكة أكرم منها استقبالًا للدعوة، ولا أرفق منها ردًّا على صاحبها، وتنطوي الساعات والأيام تتبعها الشهور والأعوام والفلك يدور هكذا

(١) سورة غافر: ٢٨

دورته بأسًا وبؤسًا، وحيفًا وخوفًا، فما نال ذلك من عزيمة الداعي ولا أيأسه من نجاح رسالته، ها هو ذا لا يزال يمد بصره إلى الآفاق البعيدة، ويتلمس لبضاعته السماوية أسواقًا جديدة، ها هو لا يزال يتلقى الوافدين في مواسم الحج كل عام، يبتغي عندهم الإيمان أو الأمان و أخيرًا في السنة الحادية عشرة من النبوة – أعني قبل الهجرة بعامين وبعض العام – برقت بارقة من الأمل، وهبت نسمة من ريح النصر في أعطاف نفر من أهل يثرب –المدينة– التقوا بالنبي ﷺ في موسم الحج ليلًا عند العقبة منى، فلما دعاهم إلى الإسلام شرح الله له صدورهم، وحملوا دعوته إلى من وراءهم، فأخذ الإسلام ينتشر بين أهل المدينة، وازداد عاما بعد عام عدد الوافدين منهم لملاقاة النبي في موسم الحج؛ كانوا ستة نفر في أول الأمر، فأصبحوا في العام الثاني اثني عشر بايعوه على التوحيد ومكارم الأخلاق، ثم صاروا خمسة وسبعين في الموسم الثالث، وفي هذه المرة عاهدوه على أنه متى انتقل إليهم هو وأتباعه منعوهم مما يمنعون منه أنفسهم وأتباعهم.

كانت هذه أول محالفة دفاعية أصبح بها للإسلام أعوان وأنصار، بل أصبحت له دار يجد فيها الحرية والأمن والاستقرار، فماذا منع المسلمين في مكة من التحول إلى تلك الدار هكذا؛ قال لهم رسول الله ﷺ: « إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارًا تأمنون فيها ». وأمرهم باللحاق بإخوانهم من الأنصار في المدينة، فجعلوا يخرجون إليها ليلًا أرسالًا، ولكن النبي ﷺ أقام في مكة ينتظر إذن ربه في الخروج، وكان أبو بكر يتجهز إذ ذاك للرحيل، فقال له النبي ﷺ: على رسلك.

فإني أرجو أن يؤذن لي، فأجل أبو بكر رحله انتظارًا لمرافقة النبي ﷺ، وكان عند أبي بكر راحلتان فجعل يعلفهما ويجهزهما، جعل ينتظر إشارة الرسول يومًا بعد يوم حتى مضى زهاء أربعة أشهر، ولندع عائشة-رضي الله عنها-تقص علينا كيف تلقوا أمر الرحيل، قالت عائشة: لم يمر علينا يوم إلا يجيئنا فيه الرسول طرفي النهار بكرة وعشية.

قالت: فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحو الظهيرة، في ساعة لم يكن يجيئنا فيها، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقفعًا، فقال أبو بكر: فداه أبي وأمي، والله ما جاء في هذه الساعة إلا لأمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال: «يا أبا بكر، أخرج من عندك – يشير إلى خطورة الأمر وسريته – فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنما هم أهلك قال: فإني قد أذن لي في الخروج»

نعم بعد انتظار أربعة أشهر أو زمانها يؤذن له اليوم، واليوم فقط في الخروج، فما خطب هذا اليوم بين الأيام، إنه هو يوم تنفيذ المؤامرة الغادرة التى بيَّتها المشركون بالأمس في دار الندوة، فأظهر الله عليها نبيه وأمره ألا يبيت هذه الليلة على فراشه، فبات علي في مكانه، وخرج النبي إلى بيت أبي بكر، فاصطحبه إلى غار ثور، فاختبأ فيه، وباتت عصابة المشركين على باب محمد يترقبون خروجه ليقتلوه، فلما أصبحوا أُسقط في أيديهم إذ رأوا عليًّا لا محمدًا، وعبثًا حاولوا أن يعرفوا منه مكان صاحبه، لأنه لم يكن ليعرف أين ذهب. فانتقلوا يقتفون أثره في كل سبيل حتى وقفوا على الغار، فلو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرأى محمدًا وصاحبه، ولكن الله أضل

الكافرين وأعمى أبصارهم، وأيد عبده بجند من عنده، ومن يرد الله عصمته عصمه، ولو في أوهن البيوت بيت العنكبوت، ومن يرد أن يمسه بسوء لم تمنعه البروج المشيدة ولا الجنود المجندة!

وهكذا لبث ضيفا الغار في كلاءة الله ورعايته، حتى جاءتهما الراحلتان في الموعد المضروب بعد ثلاث ليال، فانطلقا تلقاء المدينة، ومعهما خادم ودليل: الخادم عامر ابن فهيرة مولى أبي بكر، والدليل رجل وثني، ولكنهم عرفوا فيه الأمانة والوفاء!

وكانت قريش قد جعلت لمن يقتل محمدًا أو يأسره جائزة عظيمة قدر ديته، فتفرق الناس يقتفون أثره، ولكن الله كف عنه أعين الناس وأيديهم حتى إن سراقة بن مالك وهو القائد الوحيد الذي اهتدى إلى طريق الموكب المهاجر، ما كاد يلحق بهم حتى صرعه فرسه أكثر من مرة، فحول الله قلبه إذ ذاك تحويلًا، لقد جاء حربًا على الرسول، فأصبح الآن سلاحًا للرسول، إذ وقف في الطريق ليوجه المقتفين لأثره وجهة أخرى.

وتابع الرسول سيره حتى أبلغه الله مستقره ومأمنه، هنالك تحولت دورة الفلك يمينًا ويمنًا، وتحولت صفحة التاريخ تمكينًا للدين وأمنًا، فلئن كانت مكة في غيظها وحسرتها قد ودعت نبيها ذلك الوداع الغادر- فلقد استقبلته المدينة في بهجتها وغبطتها استقبال الفاتح الظافر، ومن يومئذ رفع الله للإسلام مناره، وأتم له نوره، فأصبحت كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم.

رحلة رسمت خطتها على عين الله في فاتحتها وفي خاتمتها وفي كل خطوة من خطواتها، وإن أنس من الأيام فما أنسى منها يومين: يومًا وقف الأعداء على فم الغار، وقد اشتد الكرب والحزن على أبي بكر، ولكن محمدًا في سكينة وطمأنينة يقول لصاحبه: «لا تحزن إن الله معنا».

ويومًا اشتد الطلب على أثرهم بين مكة والمدينة ومحمد على راحلته يقرأ القرآن، وينظر دائمًا إلى الأمام لا يلتفت، وأبو بكر على راحلته يكثر الالتفات، حتى إذا أحس أبو بكر بالعدو من خلفهم قال: يا رسول الله ﷺ هذا فارس يعدو وراءنا! فلم يزد محمد ﷺ على أن قال: «اللهم اصرعه»[1]، ثم مضى في قراءته، فليت شعري، ما هذا الأمن في ساعة الخوف؟! بما الثبات والسكون حين تزيغ الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر؟! من أنت يا محمد؟! ألست بشرًا من البشر؟! هل كانت في يمينك تصاريف القدر؟!. ألا إنه لو لم تكن في سيرتك آية لكان حسبك هذان الموقفان: آية على منزلتك من ربك، فهو الذي أنزل السكينة في قلبك، وهو الذي جعل الهدى والرشاد قرين عزمك، وهو الذي أخرجك مخرج صدق وأدخلك مدخل صدق، وهو الذي جعل لك من لدنه سلطانًا نصيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب مناقب الأنصار- باب هجرة النبي إلى المدينة (٥/٦٢/ح٣٩١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فسلامًا عليك رسول الله، ما أشد شوقنا إلى لقائك! وما أسعد يومًا نقف فيه تحت لوائك، وننتسب فيه إلى ولائك! ثم ما أطيب مقامًا نحظى فيه بجوارك، ونقتبس فيه من أنوارك.

اللهم اسمع واستجب

هجرة الرسول في القرآن

نحمد الله العلي القدير على ما أَولانا من عظيم نعمه. وصلاة ربي وعظيم تسلياته على من خصه بالتبيان، وأَنزل عليه القرآن. وعلى آله وأَصحابه أَهل الفضل والإِحسان.

وبعد: فإن الإيمان والأمل توأمان، والإيمان والعزة صنوان، لا يجتمع في قلب واحد إيمان ويأس: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولا يجتمع في قلب واحد إيمان ومهانة نفس: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فإذا رأيت الرجل يقبل خطة الذل والهوان، وهو صابر عليها مطمئن إليها؛ أو رأيته يقيم بدار كفر لا يمكن فيها من إعلان عقيدته ولا من أداء فرائضه، وهو قادر على أن يتحول عنها ثم لم يفعل – فاتهمه في دينه أو في عقله، أو فيهما جميعًا، اتهمه في دينه.

إذا كان فراق المال والوطن والأهل والسكن أشق على نفسه من مغاضبة ربه، والتنكر لضميره وكرامته! – اتهمه في عقله، إذا كان بأسه قد صور له أن حياته رهينة بدار إقامته، وأنه لن يجد وراءها مذهبًا ولا منقلبًا:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾[2]، ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

(١) سورة المنافقون: ٨.

(٢) سورة النساء: ٩٧.

وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1].

كل ذلك ليس من شأن المؤمن الممتلئ بعقيدته، إنه لا يكون حبيب أرض، ولا أسير عادة، إن إيمانه وأمله وبعد همته توسع له من الأمور مضايقها، وتفتح له مخالقها، فإذا ضاق عليه أفق اتسعت له آفاق، وإذا أغلق دونه باب فتحت له أبواب: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾[2]، الفرار بالدين من الفتن، والفرار بالكرامة من دار المهانة – تلك الهجرة في أرفع معانيها، وهي من أول فرائض الدين، وأول ثمرات الإيمان هذا في حق آحاد المؤمنين، فما ظنك بزعيم المؤمنين؟! أليس أحق بها وأولى؟!

إن حمله أثقل، وتبعته أعظم؛ ذلك أنه ليس مسئولًا عن نفسه فحسب، ولكنه مسئول كذلك عن نشر دعوة، وهداية أمة، فإذا قدرنا أنه مكن في بلده من أداء واجبه الفردي في عقيدته وعبادته، ولكن حيل بينه وبين واجبه الأعلى في إبلاغ رسالته، أفليس حقًّا عليه أن يلتمس مكانًا آخر يكون مصدر إشعاع لهذه الرسالة؟!

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

(٢) سورة النساء: ١٠٠

وهنا يحق للسائل أن يسأل: ما بال نبي الإسلام ﷺ لم يلتمس هذا المخرج منذ اللحظة الأولى؟ ما باله حين لم يجد من الملأ إلا صدًّا وصدودًا، ونفورًا وتنفيرًا، ينأون عنه بأنفسهم، وينهون عنه غيرهم، ويقفون بالمرصاد لمن آمن منهم، فكلما نبتت نابتة مؤمنة تلقوها بالتعذيب طورًا، وبالتشريد طورًا، بل تعدى أذاهم إلى عشيرته الأقربين، وإلى شخصه الكريم، ما باله إذن لم يخرج من فوره إلى أرض الله الواسعة، بل ثبت في قومه يكافح عشر سنين دأبًا؟

ذلك بأن الله -جلت حكمته- لم يجعل مقام نبيه في مكة عبثًا ولا سعى فيها هباء، فلقد كان يصنع القلوب فيها بقوله وفعله، وكان الإسلام فيها كل يوم كسب جديد، على الرغم من رعونة خصمه العنيد.

ذلك بأن الله -جلت حكمته- أراد أن يجعل منه ومن أصحابه السابقين الأولين مثلًا في التضحية والصبر؛ ليعلم الناس أن طريق المجد ليس مفروشًا بالحرير، ولا مغروسًا بالأزهار والرياحين: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1].

ذلك أن الله -جلت حكمته-حفظ عليه وعلى صحابته في هذه المحنة عقولهم وقلوبهم وشممهم وآباءهم، فلم يحنوا لها رأسًا، ولم يحبسوا من أجلها صوتًا، بل

(١) سورة البقرة: ٢١٤.

كانوا يصيحون بكلمة الحق مدوية في وجه الوثنية، السر الخطة الطاغية: الله أحد، الله الصمد!

ذلك بأن الله -جلت حكمته- لم يشأ أن ينقله منها حتى يمهد له في خارجها نزلا كريمًا، ومقامًا حميدًا، في دار خير من داره، وعشيرة خير من عشيرته جزاء صبره وجهاده.

من أجل ذلك كله لم يأذن الله لرسوله أن يغادر مقر منصبه أو أن يفارق مهد دعوته، إلا في الساعة الفاصلة، حين بلغت حمية الجاهلية قمتها، حين أرادت قمة الكفر أن تجتث هذه الرسالة من منبتها، حين قررت مكة أن تقتل هذه الدعوة بقتل داعيها، تلك هي المؤامرة الغادرة التي سجلها القرآن مفصلة، كما سجل فشلها وحبوطها، كل ذلك في ألطف إشارة، وأوجز عبارة: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[1]

نعم، لقد نفدت كل حيلهم في صد محمد عن دعوته، وفي فض أتباعه من حوله، لقد جربوا الوعد والوعيد، والملاينة والمخاشنة، والإيذاء والمقاطعة، فلم يغنهم كل ذلك شيئًا، هذه الدعوة التي لا تريد أن تتوقف في سيرها، ولا أن ترجع القهقرى، لقد أصبح لها أنصار في خارج مكة، يزداد عددهم عامًا بعد عام، فما الحيلة؟ لا بد من اتخاذ تدبير حاسم.

---

(١) سورة الأنفال: ٣٠.

وهكذا اجتمعوا ليتشاوروا في أنجح الوسائل، للتخلص من صاحب الدعوة -صلوات الله عليه وعلى آله- وتقدمت إلى المتآمرين الاقتراحات الثلاثة التي أشار إليها النص الحكيم، فيرفض اثنان منها بالإجماع، وقُبِل الثالث بالإجماع:

قال قائل منهم: أرى أن نشد وثاقه ونودعه غياهب السجن حتى يأتيه الموت، ولم يكن هذا الرأي الذي تؤمن مغبته، فإن أنصاره وعشيرته سيقاتلون دونه، ولن يتركوه حتى يطلقوا سراحه.

وقال قائل: أرى أن نخرجه من بين أظهرنا، ليكون شره بعيدًا عنا، ولم يكن هذا الرأي خيرًا من سابقه، فإن محمدًا قد أعطي من قوة الحجة وسعة البيان ما يوشك أن يؤلف حوله قلوب العرب، فيستظهر بهم على أهل مكة.

و أخيرًا قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى جلدًا، وأن نعطي كل في منهم سيفًا صارمًا، ليضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل، فلا يقدر هذا الحي من بني هاشم على حرب قريش كلها، وإذن لا يسعهم إلا أن يقبلوا فيه الدية، فنستريح منه ومن عاقبة قتله!

نال هذا الرأي تأييدًا إجماعيًّا وأعدوا العدة لتنفيذه، وكان تدبير الله أسرع وأحكم، فقد أوحى إلى نبيه ﷺ أن يخرج من مكة في تلك الليلة الموعودة، فخرج منها سرًّا هو وصاحبه أبو بكر -رضي الله عنه- وباتت العصابة المسلحة تحرس البيت عبثًا، حتى أصبحت وهي تظن أن فيه ضالتها المنشودة، ولكن الله خيب ظنها ووقى نبيه

سيئات مكرها، وكان هذا أول بوادر النصر البارزين في هذا الحادث التاريخي، وكان اليوم الآخر هو يوم الغار، حين وقف الأعداء على حافته، حتى إن أحدهم لو رفع قدمه لرأى محمدًا وصاحبه، وقد سجله القرآن كذلك في أشرف صورة وأكرمها: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

(١) سورة التوبة: ٤٠.

يوم الهجرة النبوية

لقد اعتادت الأمم أن تجعل بداية تاريخها مولد زعيم، أو نشأة قانون، أو انتصارًا في موقعة حربية، أو حادثًا ذا شأن أيًّا كان في مجرى حياتها.

غير أن الأحداث والخطوب والأمجاد ليست كلها سواء في تحديد شخصية الأمة وبناء كيانها، وإنما نجد في تاريخ كل أمة ناهضة نقطة واحدة بارزة، وحادثة فذة لامعة، تعد نقطة تحول في حياتها، تخرج بها من الغفلة إلى اليقظة، من التفرق إلى الوحدة، من الضعف إلى القوة من خمول الذكر إلى نباهة الشأن، من العزلة أو من السير في مؤخرة الأمم أو القافلة إلى السيادة والقيادة العالمية، في تلك اللحظة الحاسمة من التاريخ تخلق الأمة خلقا جديدًا، وتولد قوتها ولادة جديدة، هذا اليوم هو أحق الأيام بأن يتخذ مبدأ لتاريخ الأمة، وعلى هذا الأساس بني التاريخ الإسلامي.

وبهذا الطابع الإنساني المجيد يمتاز يوم الهجرة في كل عام من بين سائر الأيام، فالمسلمون حين يرون الهلال في مطلع كل عام هجري لا يرجعون بذاكرتهم إلى شعيرة خاصة من شعائر الإسلام، ولا إلى حدث جزئي من أحداثه، بل نقول: إنهم لا يرجعون بذاكرتهم إلى يوم نشأة الإسلام، ولا إلى يوم ميلاد نبي الإسلام، فتلك الملابسات كلها لها تواريخها الموسوعة في أيام أخر معلومة، وإنما يرجعون بذاكرتهم في رأس كل سنة قمرية إلى حدث وراء ذلك كله، إلى أن تمس جوهر الأمة

الإسلامية نفسها، إلى اليوم الذي تقرر فيه وجودها وتحدد كيانها، إلى مولدها أمة، وإلى قيامها دولة.

والأمة الإسلامية لم تولد يوم ولد نبيها، بل كان الإسلام نفسه يومئذ سرًّا مكنونًا في حنايا الغيب، وثمرة مطوية في أكمام المستقبل، ثم ولد الإسلام بعد ذلك بأربعين سنة، فلم يكن ميلاد الإسلام كذلك ميلادًا لدولة الإسلام، ولا لأمة الإسلام، بل بقي المسلمون بعد ذلك سنين عددًا، وهم أعضاء متفرقة لا يضمها جسد، ولبنات متناثرة لا ينتظمها بناء.

ولو نظرت إلى منزلتهم يومئذ عند قومهم لرأيتهم في أكثر الأمر على طرائق ثلاث:

- إما معذب مضطهد، يقاسي ألوانًا من التنكيل والتمثيل.
- وإما مشرد في أقطار الأرض يلتمس فيها مكانًا يؤويه.
- وإما محاصر في شعب من الشعاب، محروم من كل معاملة، ومن كل مصاهرة ومعاشرة حتى الفترات القليلة، التي كان يخلى فيها سبيلهم، وتفك الأغلال والقيود عن حركات أبدانهم كانوا فيها معتقلي الألسنة مكبلي الحريات، لا يمكنون من نشر دعوتهم، ولا من إبلاغ رسائلهم ورسالتهم، بل لم يكن لهم صوت يرتفع فيما بينهم بالنداء إلى الصلاة !

تلك كانت حال المسلمين قبل الهجرة، من أول لحظة إلى آخر لحظة فيها، وعلى مدى ثلاثة عشر عامًا.

فلما جاءت ساعة الهجرة المباركة، وتمت النقلة الميمونة من مكة إلى المدينة، فهنالك وهنالك فقط أصبح حديث الإسلام تهتز به أعواد المنابر، وأصبح صوت الإسلام يشق الفضاء من أعلى المنائر، هنالك وهنالك فقط أصبح للمسلمين دار تنسب إليهم، وقاعدة يصدر عنها أمرهم ونهيهم، وقلعة حصينة يحمون بها ذمارهم! هنالك وهنالك فقط أصبح المسلمون أمة لها كيانها البارز، ولها دستورها النافذ، ولها رسالتها في الحياة: رسالة الإيمان بالحق والدعوة إليه، والقيام بالعدل والتعاون عليه، تلك هي الأمة المسلمة التي أخرجت يومئذ للناس، استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[1]. تلك هي الأمة التي نوه الله بشأنها في كتابه المجيد: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[2].

أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها: إن ذكرى الهجرة إنما هي ذكرى ميلاد أمتكم التي تعتزون بالانتساب إليها، أيها المسلمون: اذكروا - وأنتم تمرون بهذا

---

(١) سورة البقرة: ١٢٨.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

اليوم المجيد-ما فيه من دلالات تاريخية كبيرة المغزى، وما له من توجيهات إنسانية بعيدة الأثر.

أما دلالته التاريخية فإنه بدء تاريخكم بعام الهجرة، على حين قد بدأ نزول كتابكم قبله بثلاثة عشر عامًا، وعلى حين كان مولد نبيكم قبله بثلاثة وخمسين عامًا، معناه أن نشأة الأمم لا تؤرخ ميلاد زعيمها وإن عظم، ولا بوضع دستور لها تترنم به ألسنتها، وتشنف به أسماعها وتزين به مكتباتها ومعاهدها ومعابدها، وإنما يبدأ وجود الأمم فعلًا في اليوم الذي تصبح لها فيه وحدة عملية تحدد شمائلها وخصائصها، وسيادة دولية تقوم على سلطانها ونفوذها، ودستور فعال ينطبق على صغيرها وكبيرها.

ألا وإن عام الهجرة هو ذلك العام الذي أصبح المسلمون فيه سادة أنفسهم أحرارا في بلادهم، ينظمون شئونهم وفقًا لدستورهم القرآن، فتلك هي الدلالة التاريخية التي شرف بها السلف، واعتز بها الخلف.

وأما التوجيه الإنساني السامي الذي نقتبسه من هذه الذكرى فهو أننا -لكي نكون جديرين بشرف الانتساب إلى هذا التاريخ، وشرف الانتساب إلى الأمة التي بدأت منذ ذلك التاريخ- يجب أن نبني كما كانت أوائلنا يبنون، وأن نصنع مثل ما صنعوا، يجب أن نعمد إلى شخصيتنا فنصونها ونقويها، وننقيها من شوائبها، وأن نعمد إلى حريتنا فنستكملها وإلى سيادتنا فنحميها، ولا نربط أنفسنا بعجلة غيرنا.

يجب أن نصوغ أنفسنا صياغة جديدة، نقتبس عناصرها من أمجادنا ومقوماتنا، من عقائدنا السليمة، ومن شريعتنا الحكيمة، ومن عواطفنا الإنسانية النبيلة، ومن عوائدنا العفيفة الأبية الكريمة.

أيها المسلمون: هذه ذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين، والسلام على من اتبع الهدى.

مواطن العبرة من غزوة أحد

الحمد لله أَعز الإِسلام بحماته، الحريصين على إِعلاءِ كلمة الحق والذين جاهدوا في الله حق جهادة، فهداهم إِلى سبيل الخير والنصر والعز والشرف، ونصلي ونسلم على أَفضل خلقه، سيد المجاهدين وإِمام الصابرين. وأَفضل الخلق أَجمعين، وعلى آله وأَصحابه وأَتباعه إِلى يوم الدين.

وبعد: ستون آية من سورة آل عمران، من قوله تعالى:﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1]، نزلت كلها بعد غزوة أحد تسجيلًا لوقائعها وتفسيرًا لأسبابها ونتائجها.

وغزوة أحد هي ثانية الغزوتين المشهورتين في صدر الجهاد الإسلامي، والمسلمون حين يذكرون الغزوة الأولى(غزوة بدر) تغمر قلوبهم عناد ذكراها، موجة من البهجة والغبطة؛ لأنها كانت أول ضربة كسروا بها قيود استضعافهم، وسجلوا بها معجزة النصر على أعدتهم، نصر القلة على الكثرة، ونصر الضعف على القوة، بل نصر قوة الحق و الأمان على قوة الجبروت والطغيان.

ولكنهم حين يذكرون الغزوة الأخرى (غزوة أحد) يكادون يستقبلون ذكراها بملء قلوبهم حزنًا وأسفًا لما أصابهم فيها من قرح، ولما وقع لهم فيها من محنة

(١) سورة آل عمران: ١٨٠.

وبلاءٍ، ولو فقه الناس لكان اغتباطهم بيوم أحد أضعاف اغتباطهم بيوم بدر؛ ذلك أن يوم بدر كان لون واحدة من الحظ، وكانت فيه عبرة واحدة من معجزة النصر، أما يوم أحد فقد تطور الموقف فيه أطوارًا ثلاثة، وكان لكل طور منها سره و عبرته: لقد كان أوله نصر ظاهر كيوم بدر، بل كان النصر فيه أظهر وأبهر، كان المشركون يوم بدر ألفًا وكان المسلمون يومئذ ثلاثمائة ونيفًا؛ أي أنهم كانوا نحو الثلث من عدة أعدائهم.

أما في يوم أحد فكان المشركون ثلاثة آلاف وكان المسلمون عند خروجهم ألفًا، ولكن نقص عددهم في الطريق، حيث تخلف عنهم عبد الله ابن أبي في ثلاثمائة من المنافقين، بل همت طائفتان من المؤمنين أن تتخلفا أيضًا، ولكن الله ثبتهما فأصبح جيش المسلمين سبعمائة فقط أي أقل من الربع، ومع ذلك فقد اكتسحوا أمامهم الآلاف الثلاثة وأثخنوهم تجريحًا وتقتيلًا.

هذه هي الجولة الأولى أشارت إليها الآية العزيزة: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾[1]؛ أي تحشونهم حش الأعشاب، وتحصدونهم حصد الهشيم، وتستأصلونهم -بإذن الله وتيسيره- فلننظر الآن كيف تحول الموقف:

لقد كان الرسول الأعظم والقائد الملهم-صلوات الله عليه- حين بوأ المؤمنين مقاعد للقتال، وخصص لكل طائفة منهم مجالًا لا تتخطاه جعل فريقًا من الرماة

(١) سورة آل عمران:١٠٢

فوق الجبل؛ يحمون ظهر الجيش ويشغلون العدو عنه وأصدر أمره إلى هذا الفريق بأن يثبتوا في مراكزهم مهما تكن النتيجة، قائلا لهم: « لا تبرحوا مكانكم نصرنا أو غلبنا حتى لو تخطفتنا الطير»[1]، ولكن الذي حدث هو أنه لما فر المشركون منهزمين حتى وصلوا إلى رحال نسائهم، واندفعت كتلة جيش المسلمين تجمع الغنائم والأسلاب، ظنت فرقة الرماة أنه قد وضعت الحرب أوزارها، وأنه لن يكون للمشركين رجعة، فتحولت عن مراكزها، واتجهت بدورها إلى جمع الغنائم!

وهكذا تركت في ظهر الجيش ثغرة، فطن لها فرسان المشركين فتسللوا منها وتتابع القوم وراءهم!، هنالك أُخذ المسلمون على غرة من خلفهم فأصابهم الاضطراب والخور، وفر أكثرهم مصعدين في الوادي؛ أي منحدرين فيه لا يلوون على شيء، ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ وقليل من أصحابه التفوا حوله، وقد أخذتهم كلهم الجراح واستشهد منهم العشرات، حتى نادى مناد أن محمدًا كان من بين القتلى، فتراكمت بذلك ضروب الهم والغم على المسلمين، غم على ما فاتهم من النصر بعد إحرازه، وغم على ما أصابهم من التقتيل والتمثيل، وغم ما تركهم الرسول خلفهم ورغبتهم بأنفسهم عن نفسه.

وتلك هي الجولة الثانية التي يقول الله تعالى في شأنها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى- كتاب السير- باب التعبئة(٨/ ٣١/ح٨٥٨١) من حديث البراء، مطولا.

عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

أكثر الناس لا يعرفون عن غزوة أحد إلا هاتين المرحلتين، وهذا هو ما يفسر شعور الحزن والأسى الذي يقترن في نفوسهم بذكرى هذه الموقعة؛ لأنها في نظرهم قد انتهت بكارثة، هؤلاء الناس يسقطون من حسابهم جولة ثالثة لها خطرها، وهي جولة لا يقدرها حق قدرها إلا من عرف ما للشدائد والمحن من الفضل في صهر النفوس، وشحذ العزائم ورفع الروح المعنوية في الجيوش القوية الإيمان السليمة الكيان، ولعمري لقد كان للوحي القرآني أكبر نصيب في إعلاء هذه الروح.

نعم، لقد حزن المسلمون في أول الأمر لما أصابهم، ولكنهم لم يهنوا ولم يستكينوا، إن حرارة الحزن عندهم لم تكن نارًا تحرق القلوب ولكنها كانت نورًا يضيء الطريق، لقد كانت نارا وحسرات في قلوب المنافقين وضعاف النفوس، أولئك الذين «أهمتهم أنفسم» فجعلوا يقولون: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾[2]، ولكنها عادت بردًا وسلامًا في قلوب المؤمنين؛ إذ مسح الله على ناصيتهم بكف الهجوع والنوم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾، وما إن استيقظوا هادئين آمنين حتى أخذوا يتعرفون أسباب

(١) سورة آل عمران: ١٥٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٤.

مصابهم، ويوازنون مغتبطين بين خسائرهم وأرباحهم، ويتأهبون في الوقت الكرَّ على أعدائهم، لئن كان قد جرح منهم كثير لقد جرحوا هم أيضا كثيرًا:﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾(١)، ولئن كان استشهد منهم اليوم سبعون، لقد قتلوا في الغزوة السابقة سبعين وأسروا سبعين: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾(٢).

وفي الحق لقد عرفوا الآن أن ما أصابهم كان من كسب أيديهم، وأنه كان بشؤم معصية بعضهم لأمر القائد وتطلع بعضهم إلى عرض الدنيا، ولكن ها هم أولاء يضمدون الآن جراحهم، ويستعدون في عزم وحزم لملاقاة عدوهم لا يزلزلهم التهديد بالجموع المحشودة لهم، ولقد كان من بركات هذا التأهب والعزم المصمم أن ولى الأعداء راجعين إلى ديارهم، وتلك هي الجولة الثالثة التي أشارت إليها الآيات الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(٣).

ويتساءل الناس بعد ذلك: لماذا لم تكن غزوات النبوة كلها انتصارات متتابعة دون خسارة كبيرة في الأرواح؟ فيجيب القرآن الكريم: بأنه لو دام النصر هكذا لدخل

(١) سورة آل عمران: ١٤٠

(٢) سورة آل عمران: ١٦٥

(٣) سورة آل عمران: ١٧٣، ١٧٤

الناس كلهم في الإسلام ظاهرًا، لا اقتناعًا بالحق، ولا انضمامًا إلى صف المنتصرين، وإذن لا يتميز المؤمن من المنافق، ولا يتبين من يعبد الله على حرف ممن يعبده في السراء والضراء، ولو دام النصر هكذا ما نال المجاهدون شرف التضحية ودرجة الشهادة، ولو دام النصر هكذا لداخل نفوس المؤمنين شيء من الزهو والغرور، ولو دام النصر هكذا ما انكشفت رءوس الجريمة والفساد، السفاكون لدماء أولياء الله، المستحقون بذلك لمقت الله، وهكذا يقول الله -جلت حكمته -:﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾[1]، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[2]، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[3].

(١) سورة آل عمران: ١٦٦، ١٦٧

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩

(٣) سورة آل عمران: ١٤٠، ١٤١

إيمان ورجولة ووفاء

نحمدك اللّٰهم ونشكرك إِذ هديتنا للإِيمان، والصلاة والسلام على سيد السادات وسبب الخيرات، سيدنا محمد، وعلى آله وأَصحابه.

وبعد: كان أنس بن النضر -رضي الله عنه- غائبًا عن غزوة بدر فأحزنه ذلك حزنًا شديدًا، وجعل يقول: فاتني أول قتال شهده رسول الله ﷺ لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ليرين الله كيف أصنع؟

فلما كان يوم أحد وانكشف الناس، قال أنس: "اللّٰهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء -يعني المشركين- وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني جيش المسلمين ثم تقدم وهو يقول: "وها ريح الجنة إني لأجدها دون أحد، وما زال يقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية، حتى إن أخته لم تعرفه إلا ببنانه![1]

هذا مثل من المثل العليا في التضحية والتفدية، لا يظفر التاريخ مثله إلا في الفترات النادرة، وأنه ليحق لنا أن نسأل أنفسنا: ألم يكن بحسب هذا المؤمن المجاهد أنه أقبل حين أدبر الناس، وأنه خاض معركة يائسة انجفل عنها الناس، وأنه اقتحم صفوف الأعداء صادق العزم، ثابت الجنان، غير مكترث لضربات السيوف، وطعنات الرماح، ورشقات النبال وهي تتناوله من كل جانب؟!

(١ أخرجه الترمذي في جامعه- كتاب تفسر القرآن- باب ومن سورة الأحزاب(٥/ ٢٠١/ح٣٢٠٠). وقال: حسن صحيح.

ما بال أنس بن النضر - نضر الله وجهه - حين أصبح كله جروحًا وقروحًا لم يربع على ظلمه، ولم يتخذ ذلك رخصة وعذرًا له عبد ربه؟ ما باله أبى إلا أن يبذل في سبيل الله كل قطرة من دمه وكل خفقة من خفقات أنفاسه؟!

رب قائل يقول: إنه عرف قيمة الصفقة فأغلى لها الثمن، أليس الله قد اشترى منه ومن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؟ فقد اختار هو أغلى الثمنين وأنفس المهرين، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

أقول: لو كان ذلك فحسب لكان أنس متطوعًا، والمتطوع أمير نفسه، ولكانت له الخيرة في الوقوف عند الحد العادي في كفاحه، ولكنه كان قد عاهد الله من قبل أن يبذل في سبيله كل جهد، وألا يقنع في هذه البذل ما هو دون الأمد، فكان كلما وجد في صدره نفسًا يتردد ربا في صدره الأمل، واتسع أمامه مجال العمل وقال في نفسه: ما أوفيت به بنذري؛ إذ ما زلت دون غاية جهدي، وما كنت لأضن على الله بهذه البقية الباقية من قوتي.

فلما أنجز وعده، وأوفى كل الوفاء بعهده استوجب من الله الإثناء عليه وعلى أمثاله بمناقب ثلاث: الإيمان، والرجولة، والوفاء: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1].

(١) سورة الأحزاب: ٢٣

لا ريب أن هذا المثل الأعلى في التضحية لا يطيقه كل الناس، ولا كل المؤمنين، ولا كل أولي العزم من المؤمنين، فهذا سعد بن معاذ يحدثنا أنه رأى أنسًا يوم أحد وهو مقبل على خوض المعركة، فأراد أن يتابعه ويفعل كما يفعل، قال: ولكني لم أستطع أن أصنع مثل ما صنع، هم إذن درجات عند الله، وما منا إلا له مقام معلوم.

نعم، إن أنسًا كان قد ارتبط أمام الله بهذا العهد الشديد، فكان حقًا عليه أن يوفيه، وليس كلنا قد أعطى هذا الميثاق الغليظ، فهو في حقنا من نوافل الخير، ومن مطالب الكمال.

غير أن في أعناقنا جميعًا أمام الله عهودًا ومواثيق دون ذلك، إن صدقنا الله فيها كنا أهلًا لهذا الثناء الجميل، وإن أخلفناها انقلبت هذه المناقب عيوبًا ومثالب؛ ضعفًا في إيماننا، وخورة في قوتنا، ومطعنًا في صدقنا ووفائنا.

ألا فليحاسب كل امرىء منا نفسه، ولينظر في مبلغ صدقه لما عاهد عليه ربه، فكلنا قد عاهدنا ربنا أول كل شيء على الإيمان به حين قال لنا: ألست بربكم؟ قلنا: بلى، وكلنا قد عاهدنا ربنا - في عقد الإيمان نفسه - على السمع والطاعة لأمره: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[1].

(١) سورة المائدة: ٧

وقد أخذ الله العهد على كل قائل، أن يقول الحق لا يخشى في الله لومة لائم، وعلى كل كاتب أن يكتب كما علمه الله، فلا يبخس من الحق شيئًا، وعلى كل كاسب أن ينزه كسبه عن الحرام والسحت، وعلى كل شاهد أو قاض أو حاكم، أن يقوم بالقسط، فلا تحمله محبة أحد على محاباته ومماته، ولا كراهة أحد على الإجحاف به ومناوأته، وعلى كل مجاهد ألا يفر من الصف، وأن يثبت عند الزحف، وعلى كل من وكلت إليه أمانة في فعل أو صنعة، أو منصب أو حرفة، أن يتقي الله فيها حق تقاته: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ﴾(١)، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢).

ثم أخذ الله على العلماء عهدة خاصة أن ينصحوا ويبينوا ولا يكتموا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾(٣)، ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾(٤)، علموا: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٣.

(٢) سورة الأنفال: ٢٧.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٧.

(٤) سورة الاعراف: ١٦٩

(٥) سورة البقرة: ٤٤.

ثم أخذ عليهم عهدًا أخلص به؛ أن يكون اعتزازهم بالله أقوى من اعتزاز سائر المؤمنين به، حتى لا يستعبدهم طمع، ولا تذل أعناقهم لبشر، بل الله وحده: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(١).

وأخيرًا جعل التواصي والتناصح بين الجميع حقًّا مشاعة، بل واجبًا متبادلًا، ليس أحد بأصغر من أن يَنصح، ولا أحد بأكبر من أن يُنصح، وتوعد المستكبر عن النصح الذي إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾(٣)، فهل وفينا بهذه العهود كلها؟!

ربنا أوزعنا أن نصدق عهدك، وأن نوفي بوعدك.

ربنا واجعلنا أشداءَ على الكفار، رحماءَ بيننا .. آمين.

---

(١) سورة آل عمران: ٧٩.

(٢) سورة البقرة: ١٠٦.

(٣) سورة العصر: ٣.

تحويل القبلة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة، سيدنا محمد، وعلى آله وأَصحابه.

وبعد: قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾(١)

هذه الآية الكريمة في شأن القبلة الإسلامية نقطة التحول بين عهدين من التشريع: تشريع مؤقت كانت القبلة فيه بيت المقدس، وذلك منذ قدم رسول الله ﷺ المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الأولى من الهجرة إلى نصف رجب من السنة الثانية، وجملة ذلك ستة عشر شهرًا وثلاثة أيام، وتشريع ثابت دائم أصبحت به القبلة هي الكعبة البيت الحرام، وذلك منذ نصف رجب المذكور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والذي يقرأ هذه الآية وسابقاتها يلمس مقدار عناية القرآن بشأن التشريع وأطواره؛ ففي بضع وعشرين آية يبسط القرآن قضية القبلة ويفصل فيها الفصل النهائي، بعد أن يمهد لهذا الفصل تمهيدًا شافيًا كافيًا.

---

(١) سورة البقرة: ٤٤.

تبدأ الآيات الكريمة بذكر إبراهيم -عليه السلام- وأن الله جعله إمامًا للناس، وأمره ببناء البيت المطهر، وجعله مثابة للناس وأمنًا ومطافًا ومصلى، وبعد أن تقص الآيات كيف أن إبراهيم وابنه إسماعيل -عليهما السلام- قاما برفع قواعد البيت كما أمر الله، وبعد أن تنبه إلى الصلة الروحية والصلة النسبية بين هذين الإمامين وبين نبي الإسلام، تشير إلى أن تحول المسلمين عن قبلتهم السابقة المؤقتة إلى قبلة إبراهيم وإسماعيل سيثير عند خفاف الأحلام وضعاف العقول شيئًا من الريب والشكوك.

ثم تكر الآيات على هذه الشبهات نقضًا ودحضًا، مجلية وجه الحق في هذا التشريع، ثم تخلص من ذلك كله إلى إصدار نطقها الحاسم فيه: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، ولا تكتفي بإصدار هذا الأمر السماوي مرة واحدة، بل نراها تكرره وتؤكده ثلاث مرات في آيات متقاربة، متوجهة إلى الرسول تارة وإلى المؤمنين تارة أخرى.

ترى ما سر هذا الاهتمام البالغ بتعيين القبلة وتوحيدها؟ وما سر هذا التطور في تشريعها؟ لماذا لم يكن نظام الصلوات كنظام الدعوات المنثورة التي لا يشترط في صحتها ولا في قبولها أن يتخذ الداعي وضعًا خاصًا من الأوضاع، ولا أن يلزم أسلوبًا معينًا من الأقوال والأفعال، ولا أن يتجه إلى جهة معينة من الجهات؟ ولماذا كانت الجهة هذا البيت أو ذاك؟ ولماذا جعلت عامة للأمة كلها أفرادًا وجماعات؟ أليست صلة بين العبد وربه؟! أليست كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب والتماس المعونة منه؟! أوليس الله يسمع لمن حمده على أي وضع

كان، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه:﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾(١).

هذه أسئلة تجول بالخواطر، ولكنها لا تلبث بعد قليل من التأمل أن ينجلي وجه الحكمة فيها، أجل إن قليلًا من التأمل يهدينا إلى أن الله -جلت حكمته- حين شرع الصلاة على هذا الوجه الموحد في أسلوبه وصورته، وحين نصب لنا فيها إمامًا نبيًا نقتدي به، ومن ينوب عنه، وحين أقام لنا بيتًا نتوجه إليه فيه بوجوهنا، ونحج إليه بقلوبنا وبأبداننا - أراد بذلك كله أن تكون الصلاة عبادة جامعة بين علامتي الإيمان: المحبة لله، والمحبة في الله، أراد ألا تكون الصلاة صلة واحدة بل مجموعة من الصلات؛ صلة بين العبودية، وصلة بينه وبين أئمته من المرسلين أو ممن يحمل رسالتهم، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين.

هذه الرابطة الروحية المثلثة: بين المصلي وبين ربه، وبين إمامه وبينه وبين سائر المأمومين، هذه الرابطة الروحية كثيرًا ما تتمثل في صورة مجسمة، في جماعة حاضرة نراها رأي العين، ونحس فيها تزاحم المناكب، وتجاوب الأصوات، وتناسق الحركات والسكنات، حتى إذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار فإنها لن تغيب عن الأبصار والبصائر.

---

(١) سورة البقرة: ١١٥.

وإذا تجردت من الأشباح فإنها تبقى ماثلة في القلوب والأرواح، ومن ثم لا ينبغي للذي يصلي في خلوته أن يظن نفسه منفردًا منعزلًا في موقفه، كلا، بل ليذكر أن عن يمينه وعن شماله ومن أمامه ومن خلفه ألوفًا من الصفوف في مشارق الأرض ومغاربها يشدون أزره، ويؤيدونه في جوهر مطالبه، إنهم معه يستقبلون قبلته ذاتها، ويرددون مقالته عينها، إنه ليس فيهم من يقول: إياك أعبد وإياك أستعين، بل كلهم يقولون: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]، ليس فيهم من يقول: اهدني، بل كلهم يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2]، وليس فيهم من يقول: السلام علي، بل كلهم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

هكذا ينبغي لكل مصلّ أن يعد نفسه عضوًا في وفد الرحمن، لا يناجي ربه بلسانه، بل بلسان إخوانه المؤمنين الحاضرين منهم والغائبين.

ألا وإن الوحدة التي يرمي هذا التشريع إلى تحقيقها لأوسع مجالًا وأبعد مدى من أن تقف عند حدود الجيل الحاضر، إنها تريد أن تنتظم في سياج واحد كل أهل القبلة من الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة، بل نقول: إنها أوسع رقعة من أن تقف عند عصر النبوة المحمدية، إنها تتجاوز ذلك العصر إلى عصور النبوات الأولى، ذلك أن الشريعة المحمدية لم تنشئ هذه القبلة إنشاء، وإنما جاءت مصدقة ومقررة

(١) سورة الفاتحة: ٥.

(٢) سورة الفاتحة: ٦.

للقبلة التي أسستها النبوات السابقة، وهذا من أوضح الأدلة على سماحة الإسلام وسعة أفقه، وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين وتوحيد رابطة المؤمنين بالأديان السماوية كلها.

ولقد حقق الإسلام هذه الوحدة على مرحلتين متصاعدتين: ففي المرحلة الأولى انضم إلى صف إخوانه من الأنبياء السابقين، وفي المرحلة الثانية والأخيرة صعد إلى الأصل الأصيل إلى الكعبة التي هي أول بيت وضع للناس، منضمة بذلك إلى صف أبي الأنبياء الذي يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته، وإن لم يستقبلوها في صلاتهم.

أما بعد فلقد كبر هذا التحويل على كثير من الناس، وحسبوه لهوًا وعبثًا، أو حيرة وترددًا، وما هو بعبث ولا بتردد، وإنما هو التصميم الأول نفسه يسير صاعدًا نحو الهدف الأخير.

ولقد سماه علماء الظاهر نسخًا، وما هو بنسخ إلا في الصورة والرسم، أما في جوهره فهو التدرج في توحيد كلمة الأديان، أرأيت الولد البار حين يسير قاصدًا إلى بيت أبيه؟ فإذا مر في طريقه على بيت إخوته فإنه يأبى إلا أن يعرج عليهم ليقيم بينهم فترة ما؛ تطييبًا لخاطرهم، ثم يكون مستقره في البيت المشترك الذي يحمل اسم الأسرة كلها، فذلك مثل التطور الذي حدث في تشريع القبلة:

فبيت المقدس هو بيت الأخوة، والكعبة هي بيت رأس الأسرة، وهي منزل الجد الأعلى، وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين القبلتين، فإنه لم يكن همه ذات القبلة في الأولى ولا في الثانية، وإنما كان همه أول الأمر وآخره هذا الانضمام والالتحام بين أسرة المؤمنين في وحدة القصد والتوجه إلى المعبود الأعلى تحت لواء النبيين المرسلين: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، اللّٰهم اهدنا صراطك المستقيم وزدنا هدى... آمين.

(١) سورة الأنبياء: ٩٢.

(٢) سورة البقرة: ١٤٢.

التفاني في العقيدة

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وصلى الله على النبي محمد خير الأنام، وعلى آله الأعلام وأصحابه الكرام، أفضل الصلاة والسلام.

وبعد: آثار العقيدة في حياة الأفراد والأمم ظاهرة يدركها كل ذي عينين، ولكنها تختلف ضعفًا وقوة وضيقًا وسعة تبعًا لحال العقيدة ذاتها ومدى سلطانها على النفوس:

فهناك عقيدة ضامرة ذابلة هزيلة، قد زاحمتها شئون الحياة اليومية فألجأتها إلى حاشية من حواشي النفس، وتركتها عاطلة لا عمل لها، هامدة لا حراك بها إلا في فترات قصيرة لا تلبث أن تعود بعدها إلى سباتها العميق، تلك وآسفاه هي حالة العقيدة في نفوس بعضنا أفرادًا وجماعات.

أليس من الناس من يؤمنون بواجب التضافر والتآزر وهم أشتات متفرقون؟! ويؤمنون بضرورة الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية وهم ضعاف متثاقلون؟! ويؤمنون بفريضة البذل والتضحية وهم أشحاءُ حريصون على الحياة؟! مثلهم في ذلك كله مثل المريض الذي يعتقد أن لا شفاء له إلا بتجرع مرارة الدواء، ولكنه تخذله عزمته وتقعد به همته عن تناوله! فما غناء هذه العقيدة الجافة الميتة التي لا توقظ نائمًا ولا تحرك ساكنًا؟!

وهناك عقيدة نصف عاطلة تهيمن على جانب واحد من جوانب السلوك، ولا سلطان لها على الجانب الآخر منه، مثال ذلك أننا نرى فريقًا من الناس يحسنون

معاملة الخلق، ولا يحسنون معاملة الخالق، يعجبك من أحدهم أنه لا يخون الأمانة، ولا يشهد الزور، ولا يجور في الحكم، ولكنك ترى هذا الصنف من الناس مقطوعي الصلة بالله الذي خلقهم ورزقهم، ولا يوجهون وجههم إليه، ولا يعتمدون في شئونهم عليه، ولا يذكرونه إلا قليلًا.

وترى فريقًا على العكس من ذلك تبلغ بهم المحافظة على مراسم العبادات ونوافل الطاعات أنهم يتورعون عن نقص تسبيحة منها أو تكبيرة، ولكنهم لا يتورعون أن يحكموا الهوى في أحكامهم، وأن تنطوي على الحقد والحسد قلوبهم، وأن يتهموا الأبرياء مما يعلمون براءتهم منه، وتراهم -وقد أذل الحرص والطمع أعناقهم- لا يأبون أن يقفوا مواقف الذلة والصغار اجتلابًا لعرض من أعراض الدنيا، واستبقاء لما في أيديهم منه!

هؤلاء وأولئك إن كانت لهم عقيدة فهي عقيدة مصابة بشلل نصفي، ويوشك أن يسري الشلل إلى نصفها الآخر، نعوذ بالله أن نكون من موتى العقائد أو مرضاها.

وأخيرًا هناك عقيدة سوية قوية حية نامية يقظة واعية مسفرة مشرقة، يغمر ضوءها جوانب النفس، ويسري ماؤها في أغوار القلب، فهي للضمير مناره الذي يهديه سواء السبيل، وهي للإرادة قوتها النازعة الوازعة، عن أمرها يصدر صاحبها في حركاتها وسكناتها، يتوجه في أقواله وأعماله، يتلقى دائمًا وحيها ويستلهمه، ويتوخى إرشادها ويترسمه، فإذا أصبح ذلك رأيه وديدنه صغرت في عينيه الدنيا وزينتها،

وتضاءلت في نفسه نوازع الهوى وحاجات الجبلة، فلا يفكر في مطالب شخصه إلا لمامًا، ولا يركن إلى الدعة واللهو إلا استجمامًا، على أنه حين يلم بشيء من ذلك فإنما يتناوله باسم العقيدة والمبدأ، وعلى النحو الذي ترسمه له العقيدة والمبدأ، استعانة على الحق وتقويًا على الجد.

أولئك حقًا هم أصحاب العقائد والمبادئ، فنيت أشخاصهم في عقائدهم، وانمحت أهواؤهم في مبادئهم، وأصبحوا كأنهم هم عقائد متجسدة ومبادئ ماثلة تمشي في الناس، وأولئك هم الذين لا تهمهم أنفسهم؛ لأنهم باعوها له بيعًا رابحًا، أولئك الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، أولئك هم الراشدون فضلًا من الله ونعمة.

وهم بعد على مراتب متفاوتة ودرجات متصاعدة على قدر التبعات التي يحملونها وفي مستوى الآفاق التي يمتد إليها نشاطهم، فليست مهمة الجندي كمهمة القائد، وليست فضيلة الرشاد وحدها كفضيلة الرشاد والإرشاد مجتمعين، وليس إصلاح المنزل والأسرة كإصلاح القبيلة أو المدينة، ولا قيادة الأمة والشعب كقيادة الأمم والشعوب، ولا هداية العصر والجيل كهداية العصور والأجيال.

كل ذي عقيدة حية فعالة يعرف من تجربته في نفسه أنه قد ينوء بحمل الواجبات المتنوعة التي تفرضها عليه عقيدته، هذا وهو جندي لا يسأل إلا عن نفسه، فكيف إذا أصبح مسئولًا عن نفسه وغيره معًا، وألقي عليه عبء الهداية والإصلاح فوق

عبء الاستقامة والصلاح؟! ثم كيف تزداد مسئوليته صعوبة وتعقيدًا كلما ترقى في سلم الزعامة والقيادة؟

وأخيرًا كيف تبلغ هذه المسئولية حد التعجيز والإحالة إذا انتهى إلى رتبة القيادة العالمية الخالدة؟ نعم أي بصيرة تلك التي تنفذ من وراء الحجاب في هذا الأفق؟ وأي قلب يتسع لهذه المهمات الجليَّة؟ وأي كاهل يقوم بهذه الرسالات العظمى إن لم يكن له من السماء عون كريم وتأييد عزيز؟

فلتكن هذه تحية متواضعة نحيي بها ذكرى الصالحين المصلحين الذين أسسوا تلك الدعوات الإصلاحية، ونكرم بها خاتم النبيين وجامع كلمتهم ومتمم بناءهم: محمد ابن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- فلقد كان كل نبي منهم يدعو وينادي: يا قوم، إني لك نذير مبين، يا قوم: إني لكم ناصح أمين، حتى جاء محمد ﷺ فجمع الرايات كلها تحت راية واحدة، وجعل ينادي: أيها الناس! هذا نذير للبشر، بل أيها الثقلان، يا معشر الجن والإنس: هذا ذكر للعاملين: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[1]، أي ولأنذر به كل من بلغه خبره وانتهى إليه أمره في عصره وفي سائر العصور إلى يوم يبعثون: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2]، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

(١) سورة الأنعام: ١٩.

(٢) سورة المائدة: ٣.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٥.

ألا من سرَّه أن ينظر إلى أعظم وأدوم وأعم رسالة إصلاحية عرفها أو يمكن أن تعرفها البشرية، وسرَّه أن يرى كيف وهب لها صاحبها قلبه ولبه، وكيف ملكها ناصيته وجوارحه، وكيف قام وهو في سن الأربعين أو زهائها واقفًا وحده في صف والعالم كله في صف، فما زال بالأبواب الموصدة حتى فتحت، وبالقلوب النافرة الجامحة حتى لانت وألفت، وما زال يثابر ويصابر ويكافح وينافح حتى أمضى رسالته، وأنفذها من ألفها إلى يائها، على الرغم من جدتها وغرابتها وسموها ومثاليتها، وحتى ربى جيلًا يحملها من بعده، وينقلها على معبرة التاريخ باسم الله ثم اسمه.

من سره أن ينظر إلى هذه الصورة العجيبة فلينظر إلى نبي الإسلام وهو يؤسس دعوة الإسلام، دعوة تردُّ عليه أول الأمر من الأقربين إليه فيلتمس قبولها عند الأبعدين عنه من بين مواطنيه، ثم تلاقي من هؤلاء الصدود والسخرية، فيخرج من بلده محاولًا نشرها فيما حول مكة، ثم يكون جوابها عند هؤلاء الازدراء والإيذاء، فيعرضها على القبائل الوافدة في المواسم، ثلاثة عشر عامًا، وهو في هذا الشغل الشاغل والهم الناصب ولا يجد حوله بارقة أمل في انتشار دعوته واستقرارها، بل يجد من قومه في أثناء إقامته بينهم تألبًا وتحزبًا ومناصبة للعداوة السافرة، حتى إنهم حاصروه هو وعشيرته بضع سنوات في شعب من شعاب مكة،

لا يعاملونهم ولا يكلمونهم، فلم يزده العناد منهم والمكابرة إلا مضيًا في الإلحاح والمثابرة، ولم تزده العقبات والصدمات إلا استسهالًا للصعاب واستعذابًا للعذاب.

ألم تستمع إليه حين رجع من الطائف وقد رده أهله أسوأ رد، وسلطوا عليه السفهاء يرمونه بالحجارة، فجعل يشكو إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته، فلم يكن في شكواه حرف واحد ينم عن شيء من اليأس، بل إنه ختمها بأروع كلمة يعرفها أرباب المثل العليا؛ إذ جعل يقول في مناجاته لربه: "إن لم تكن ساخطًا عليّ فلا أبالي"؟[1]

كل ما يعنيه إذن في جهاده هو إرضاء ربه وضميره، أما ما وراء ذلك مما يصيبه في سبيل ذلك فكله أمر يهون ويزدري، أليس هذا أصدق تعبير عن حقيقة المثالية والفناء في العقيدة؟!

وأروع من ذلك كلمته الأخرى التي تناقلتها السير وسارت بها الأمثال في إجابته لعمه أبي طالب حين رغب إليه أن يشفق على نفسه وأن يكف عن مواجهة قريش بهذه الصراحة المؤلمة، فما كان جوابه إلا أن قال: "وَاللَّهِ يَا عَمِّ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حتى يُظهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ"[2]، فيا لها من عزيمة مصممة لا تقبل مراءاة ولا مساومة! ويا لها من رسالة قدسية أعز وأغلى عند صاحبها من تلك الدنيا وملك الشمس والقمر!

---

(١) أخرجه مطولا الطبرانيُ في المعجم الكبير (١٣/٧٣/ح١٨١) من حديث عبد الله بن جعفر.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة- في المقدمة- دلائل النبوة في سمو حياته صلى الله عليه وسلم وجهاده (صـ٦٤).

وهل كانت الهجرة المحمدية إلى المدينة إلا حلقة جديدة من سلسلة هذا العزم المصمم على إنجاح الدعوة بكل وسيلة، وعلى النجعة في طلب التربة الخصبة لها في أية بقعة يجدها من أرض الله الواسعة؟

هذا النبي المهاجر -صلوات الله عليه- لم يخرج إذن إلى المدينة لحماية شخصه، ولكن لحماية رسالته وإرساء دعوته، ولم يكن خروجه هربًا من الجهاد، ولكن استنادًا إلى قلعة الجهاد، إنه جزء من خطة ثنائية مرسومة في السماء؛ فالجهاد كر وفر، وقد أحسن الفر ليحسن الكر، وكان هذا الفر هو فاتحة العهد الجديد أول النصر العزيز، ومن أجل ذلك نيط به تاريخ الإسلام فجعل عام الهجرة منه هو غرة الأعوام.

هكذا نرى العقيدة والمبدأ هما هدفا النشاط النبوي ومحوره في أول الأمر وآخره، بل هما كل شيء في حياة الرسول: لهما يتحرك ويسكن، ومن أجلهما يرضى ويغضب، وفيهما يحب ويكره، بل فيهما يموت ويحيا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

(١) سورة الأنعام: ١٦٣،١٦٢.

مكة وطن روحي لجميع المسلمين

الحمد لله الذي جعل البيت مثابة للناس وأمنًا، والصلاة والسلام على الهادي البشير، سيدنا محمد نبي الرحمة، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار، وبعد:

أيها الحجاج الأبرار:

هذا حرم الله تفتح لكم سماؤه تكريمًا لوفودكم، وتتطمأن لكم أرضه ترحيبًا بقدومكم، وهذه ملائكة الرحمن تستقبلكم وتحييكم وتقود خطاكم وتهديكم.

أيها الضيف المكرمون:

حنان ما أتى بكم اليوم ها هنا، في هذا القيظ الملتهب هواؤه، المحترقة رمضاؤه، أعلن حين يتهيب الناس في بيوتهم أن يخرجوا من الكِنِّ إلى الضَّحِّ، وأن يتعرضوا للفح الريح، في الوقت الذي يخرج فيه القادرون على السفر إلى مرابع الظل الظليل، ومساقط النسيم العليل، في مناطق الشمال وعلى شواطئ البحار، تقبلون أنتم ضاحين في العراء، ضاربين في أحشاء الصحراء، تكابدون عناء الحل والترحال، وتخوضون بحارًا من العرق والغبار، في بلد غير ذي زرع ولا قطر، هلا أجلتم هذه الرحلة القاسية عدة أخرى من السنين حتى يدور الزمان دورته، فيجيء موسم الحج في الشتاء أو في الربيع! هكذا يخوف الشيطان أولياءه، ويخذل الضعفاء من أعدائه، وهكذا يفكر أولو النعمة، والمترفون في كل أمة.

أما أنتم، فقد سخرتم من كل هذه المعوقات والمثبطات، إن حرارة الطبيعة قد انمحت وانهزمت أمام حرارة إيمانكم، وإن وعورة السفر قد ذللتها صلابة

عزائمكم، وهكذا برهنتم على أن الإنسان ليس هو هذا الكل الحسي الذي تدركه الأبصار، وأن قيادته وتصريف زمامه ليس كما يزعم الجاهلون بيد تلك القوى الطبيعية كلها بدنية كانت أو كونية، برهنتم على أن في الإنسان جوهرة أخرى أعظم من أن يناالها الحس: السلطان في الحقيقة سلطانها، والأمر النافذ على الجوارح هو أمرها، تلك هي المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

لقد شعرتم إذن بنداء الواجب، يتردد صداه بين جوانحكم، فلم يسعكم إلا أن أجبتموه سراعًا: لبيك لبيك، لا نعرض محجمين ولا نقعد متثاقلين، وكذلك يفعل أولو الحزم والعزم، هم أبدًا سباقون إلى الخير، مسارعون إلى البر، لا يحتمل نداء الواجب عندهم تسويفًا ولا تأجيلًا، ولا يبالون في سبيله ما يبذلون من جهد وتضحية، ذلك بأنهم لا يصيبهم فيه ظمأ ولا نصب ولا مخمصة، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديًا إلا كتب لهم، ووفوا عليه جزاءهم، ألا فليكن في سبيل الله ما كابدتم وتكابدون، وفي صحيفة الحسنات ما بذلتم وتبذلون، وليكن جزاؤكم عند الله موفورًا، وسعيكم لديه مشكورًا.

أيها الضيف المكرمون:

لا تحسبوا حين أدعوكم باسم الضيف المكرمين أني أعدكم ضيفًا ها هنا على أحد من البشر، فإنما أنتم وفد الله وضيف الرحمن، إنكم ها هنا لستم بدار غربة،

ولكنكم في أرضكم وديياركم، لئن كنتم قد فارقتم أوطانكم الخاصة المتفرقة لقد حللتم هنا في وطنكم المشترك الجامع، هذا هو البلد الحرام الذي جعله الله للناس سواء العاكف فيه والباد، فالمسلمون فيه سواسية: المقيمون فيه، والقادمون إليه، لهم جميعًا حق مشاع في مناسكه ومشاعره وآثاره ومعالمه، لا ينازع فيه أحد، أو تستأثر به أمة دون أمة.

أيها الحجيج البررة:

كم تشاهدون ها هنا من آيات بينات؟ وكم تستعيدون ها هنا من ذكريات محببات إلى القلوب؟ ها هنا هبط الوحي من السماء، وها هنا استوطن الأنبياء، ها هنا بزغ نور الإسلام، ها هنا مشى محمد ﷺ وصحبه، ها هنا انتصر الحق وحزبه، ها هنا طاف الأنبياء والصالحون، ها هنا سعوا و هرولوا، ها هنا صعدوا وانحدروا، ها هنا ذبحوا ونحروا، ها هنا دعوا و ابتهلوا، ها هنا تصدقوا وبذلوا، فإن كنتم تريدون أن تسجلوا أسماءكم في الكتاب الذهبي الذي أعده الله لهم فسيروا علي مواضع أقدامهم، واقتفوا سنتهم وآثارهم في نصها وروحها ومظهرها ومخبرها، ثم هذه الكعبة التي كنتم تحجون إليها بقلوبكم في الصلوات، وترنون إليها بأبصاركم من وراء الافاق كل يوم عشرات المرات، ها هي ذي منكم الآن رأي الأعين، فاغتنموا وتزودوا.

إنها البقعة المطهرة، مطهرة: أمر الله أن تنزه عن كل رجس، وعن كل إثم، وعن كل ظلم حتى من الرفث والخصومة والجدال، الصغيرة فيها كبيرة، والحيف اليسير فيها ظلم عظيم ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

ومطهرة: جعلها الله مغتسلا للذنوب التي ترتكب في كل مكان، وفي كل شان إلا ظلم الإنسان للإنسان فإنه لا تكفره صلاة ولا صوم ولا حج ولا قربان وإنما تمحوه رد التبعات إلى أهلها أو استعفاؤهم منها.

أيها الحجاج المبرورون:

لقد حدثتكم الآن عن أهداف هذه الرحلة المقدسة حديثا يعرفه كل أمريء منكم في نفسه، وأود أن أحدثكم عنها حديثا آخر ربما لا يعرفه منكم إلا القليل، فعامة المؤمنين يفهمون من شعائر الحج أنها مأدبة روحية أعدها الله لعباده عند أول بيت وضعه للناس ليتزودوا فيها من أنواع القربات، ويتعرضوا فيها لفيض الرحمات، فكل واحد منهم حين يؤديها إنما يعينه شأن نفسه وتزكيتها وشأن واجباته وتأديتها.

غير أن الإسلام أوسع أفقا، وأبعد نظرة من أن تحده هذه الأهداف الفردية الضيقة، وإلا فلماذا لم يترك لنا الخيرة في أن نؤدي هذه الشعائر فرادى أو مجتمعين في أي وقت من العام يشاؤه الواحد منا؟

ولماذا أمرنا لزامًا أن نؤديها مجتمعين في صعيد واحد في وقت واحد وفي زي واحد؟ لا بد أن هنالك سرًّا أو أسرارًا يهدف إليها التشريع الإسلامي من وراء هذا التجمع

والتكتل، ولست محدثكم عن هذه الأسرار جملة وتفصيلًا، ولكني أكتفي بواحد منها.

أتدرون ما الأواصر التي ربط الله بها هذه الأمة الإسلامية، لتكون كالجسد الواحد؟ كلنا نعرف منها آصرتين اثنتين: وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، إله واحد، وكتاب واحد، آصرتان عقليتان معنويتان، ولكن الله أراد أن يضم إليهما آصرة ثالثة حسية ملموسة، فبعث مناديًا في الناس أن يجتمع ها هنا وفود المسلمين من أقطار الأرض كل عام ليعبدوا هذا الإله الواحد، بتلك الشريعة الواحدة، على أرض واحدة هي أرض الوطن الروحي، وهكذا تجسدت وحدة العقيدة ووحدة الشريعة في وحدة الوطن الأعلى، ذلك ليذكر المسلمون أنهم -وإن تفرقت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألوانهم- تجمعهم جامعة الدين والله والوطن، وأنه إذا جد الجد وجب أن يضحي كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل هذه المصلحة المشتركة العليا.

إن نظرة إلى خريطة العالم الإسلامي ترينا كيف أنه يمتد في قلب العالم كتلة واحدة متصلة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وأنه كله يدور على محور واحد هو مكة المكرمة التي هي قلب الوطن الإسلامي وقطب رحاه، إن هذا الوضع الجغرافي المتماسك القوي قد اختص به الإسلام بين سائر الأديان، ومع ذلك فمن أعجب العجب أن الذي ينظر إلى الماضي القريب للأمة الإسلامية لا يجدها في المكانة التي

يؤهلها لها هذا الموقع الفريد، ذلك أن تفتتها الإقليمي وانطواء كل شعب منها على نفسه أنساها هذه الرابطة العظمى، ولقد كان المسلمون الأولون لا يعرفون هذه الحواجز الحديدية، فكان التجار والرحالون يتنقلون من قطر إلى قطر وليس بيدهم جواز سفر إلا كلمة الإسلام.

فهل يعود الإخوة المؤمنون إلى هذا التقارب والترابط لتعود للوطن الإسلامي مناعته وحصانته، فلا يبقى فيه بعدئذ عيش لتلك الطفيليات التي تمتص دماء أبنائه وتحني أعناقهم؟! وهل يكون لنا من موسم الحج هذه العبرة؟! إنها ذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين.

الحلقة المفقودة في أنظمتنا الاجتماعية

الحمد لله الذي خصنا بكتابه، وشرفنا بخطابه، وصلاة الله وسلامه وتحياته وبركاته وإكرامه على من دلنا على الله وبلغنا رسالة الله فعلم ونصح، وبين وأوضح، سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي القرشي الهاشمي، وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة والسلام.

وبعد: إلى المؤمنين برسالة الإصلاح، المتلهفين شوقًا إلى بناء مجتمع نقي قوي، المتلمسين أقرب الطرق وأسرعها توصيلًا لهذه الغاية النبيلة، إلى قلوب هذه الفئة الغيورة المؤمنة أسوق كلمتي، وأوجه دعوتي:

إني لأسمعكم تشكون وتتبادلون الشكوى من كثرة عيوبنا ونقائصنا، وإني لأراكم في كمد وأسى تتمنون أن يتبدل نقصنا كمالًا، وانحرافنا استقامة، وفسادنا صلاحًا، إن المريض -أيها السادة- لا تشفيه شكوى الأطباء ولا تشاكيهم، وإن الغريق لا ينقذه بكاء المشفقين ولا تباكيهم، ويا ليتنا حين نجأر بالشكوى نضعها في موضعها فنصرخ بها في وجه العيب والنقص حتى نزلزل بها أقدامها، ولكننا نشكو الذنب في غيبته ومن وراء ظهره، ولا نجرؤ على مواجهته ومكاشفته، ألسنا نجامل المذنبين من أهلنا وأصدقائنا ونكتمهم نصحنا إسرافًا في مجاملتهم؟! ألسنا نمر في الطريق فنرى الحقوق مضيعة والآداب منتهكة ثم نمضي في طريقنا ونهز لها أعطافنا ما دامت لا تمس أشخاصنا؟!

هل أدلكم على موطن العلة والداء؟ إن هذه الظواهر كلها ما هي إلا أعراض حادة أو مزمنة لمرض جوهري رئيسي عميق بعيد العمق خطير شديد الخطر يهدد كياننا الاجتماعي: ذلك أننا نفهم الحرية الفردية فهمًا سيئًا متطرفًا، ونفهم المسئولية الاجتماعية فهمًا ناقصًا محرفًا، الدولة عندنا هي المسئولة عن كل شيء، هي التي يجب عليها أن تتعقب المذنبين وأن تتولى عقوبتهم، فإذا لم يصل إليها نبأ الجريمة، أو لم تصل هي إلى كشف معالمها، أو كانت ثم لا يعاقب عليه القانون تركنا نحن صاحبها آمنًا مطمئنًا يلاقي الترحيب والتكريم الذي كان يلاقيه من قبل، وتركنا كل فرد منا يسير سيرته الأولى غير شاعر بمسئوليته عن سلوك الآخرين، ولا حاسب حسابًا لموقف الآخرين من سلوكه، عقد منفرط لا ينظمه سلك واحد، وجسم لا يهيمن عليه روح واحدة.

أتدرون ما هذا الروح الواحد الذي يجب أن يسود ويهيمن على المجتمع؟ إنه الوعي العام الغيور المتيقظ، الحارس للقيمة المعنوية في الجماعة.

نعم، إن ها هنا سر الشقاء وحقيقة الدواء، أما ما وراء ذلك من دعوة الداعين وإرشاد المرشدين فوق المنابر أو على جناح الأثير أو على صفحات الكتب والجرائد، فليس في جملته إلا تلطيفًا وتسكينًا وقتيًّا لبعض جوانب المرض، ذلك أن الذين تتفتح أسماعهم وقلوبهم لهذا الإرشاد إنما في الصالون الخيرون، وقليل ما هم، وأن الذين تنطبع به مشاعرهم، وتتحرك به عزائمهم من بين هؤلاء القليل هم

أقل القليل، أما السواد الأعظم من المستمعين فإنهم متى انصرفوا إلى شئون الحياة في البيت أو في الطريق أو في المدرسة أو في الديوان أو في الأندية أو في الأسواق أو في المصانع أو في المزارع - فإنهم سرعان ما ينسون؛ لأنهم لا يجدون في بيئة منها وازعًا ولا منازعًا ولا مذكرًا ولا محذرًا، بل يجدون فيها من ضروب الإهمال والتهاون الأدبي ما قد يغريهم بالعبث أو الإجرام.

هكذا تهدم الجماعة في ساعة واحدة ما تعبت في بنائه أيدي القادة والمصلحين، وهكذا تكون الجماعة هي التي تمهد السبيل لأبنائها أن يقفوا مواقف الإثم والبغي، وهي التي تقودهم في النهاية إلى أسوأ العواقب وأشد العقوبات.

نحن إذن في حاجة ملحَّة إلى إيقاظ هذا الضمير الاجتماعي في الأمة لا عن طريق الدعوة والموعظة فحسب بل من طريق عملي جدي، نحن بحاجة إلى تكوين رأي عام أخلاقي له نفوذه واحترامه في نفوس كل الأفراد؛ بحيث يشعر كل امرئ أن إساءته دقت أو جلت ستلاقي جوابًا سريعًا علنيًّا في سلوك المجموع بإزائه.

نعم، إننا نريد أن يشعر كل باغ على حق غيره، وكل خائن لأمانته، وكل مضيع لواجبه، وكل خارج على الآداب في صورة من الصور نريد أن يشعر بأنه -قبل أن يؤاخذه القضاء، وقبل أن يواجه التحقيق، وقبل أن يقوده رجال الضبط والحفظ- ستصوب نحوه جهارًا سهام النقد والذم، وسيذوب وجهه خجلًا تحت نظرات السخط والمقت، وسيحرم عطف المجتمع ومعونته، وأنه لن يبتسم في وجهه أحد،

ولن يبادله التحية أحد، وأنه سيعيش مهجورًا منبوذًا حتى يراجع نفسه ويعدل من سيرته.

هل أتاكم نبأ الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين خرج هو وأصحابه إلى الجهاد في سفر شاق طويل، وفي إبان القيظ الشديد، فلما عاد من السفر وسألهم عن سبب تخلفهم صدقوه الخبر، واعترفوا له بأنهم لم يكن بهم مرض ولا عوز، وكان كل ذنبهم أنهم طال بهم التجهز للرحيل حتى فاتتهم القافلة، أتدرون ماذا فعل القائد الحكيم؟ لقد نهى الناس عن كلامهم حتى يقضي الله في شأنهم، فاجتنبهم الناس اجتنابة، حتى كان أحدهم يسلم على بعض أقاربه وأحب الناس إليه فلا يردون عليه التحية، بل اعتزلهم أهلهم ونساؤهم، ولبثوا على ذلك خمسين يومًا وليلة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، ثم تاب الله عليهم بعد أن انصهرت قلوبهم بهذه المقاطعة الشاملة التي كانت أنكى فيهم من حد السيف.

هذا هو طراز التربية الناجحة الذي نريد أن نقتفي منهاجه، وتلك هي الحلقة المفقودة التي لو وضعناها في مكانها من جهاز حياتنا العاملة لاستراح الحاكم والمحكوم، وما كاد يبقى بيننا ظالم ولا مظلوم.

أما أننا كيف نخلق الرأي العام القوي الأبي، فإن مفتاح الحل في يدكم أيها الأحرار الغيورون، وما عليكم إلا أن تبدءوا بغرس شجراته الأولى على بركة الله.

والآن فإني سأدعوكم إلى البدء في تجربة هذه الخطة العملية الإنشائية، واعلموا أني لن أدعوكم إلى كبير ولا إلى عسير، ولا إلى شيء من العنف الذي يحظره الأدب أو القانون، ولكن سأدعوكم إلى تحقيق الحد الأدنى من درجات إيمانكم بالإصلاح، سأدعوكم وأتحدى إيمانكم وعزيمتكم، فاستمعوا لهذه الدعوة وأطيعوا، بارك الله فيكم:

هأنذا أدعوكم في هذه اللحظة أن يعاهد كل منكم ربه، وأن يبايع كل منكم أهله وعشيرته وأصدقاءه وأصفياءه أن تكونوا يدًا واحدة في الصراحة والحق، تبدءون ببذل النصيحة بالحسنى لكل من زلت قدمه فتذكرونه كلما نسي، وتنبهونه كلما غفل، حتى إذا عاود وعاند وأصر وأبى ولج في الفساد وجاهر بالإثم والعدوان أشعرتموه إعراضكم، وحرمتموه بشاشة وجوهكم، ومنعتموه مظاهر ترحيبكم وتكريمكم، وأحطتموه بجو من العزلة والوحشة والهجران حتى يفيء إلى أمر الله.

إن هذه المقاومة السلبية الأدبية التي أدعوكم إليها هي معنى تغيير المنكر بالقلب لمن عجز عن تغييره باليد واللسان، وهي التي صدر فيها النطق النبوي الحكيم بأنها هي أضعف الإيمان، فإن قمتم اليوم بوضع حجرها الأساسي فتحتم فتحًا مبينًا في دعم نهضتها، وبالتعجيل بإنضاج ثمراتها المباركة.

وهأنذا أبدأ بنفسي فأعاهد ربي وأبايع أهلي وعشيرتي وإخواني وخلطائي أن أحافظ على هذا الواجب ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

استقبال رمضان «من وحي الهلال»

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، منزل الكتاب وما فيه من الأحكام، جاعل الصوم من شعائر الإسلام، وأصلي وأسلم على رسوله محمد خير الأنام، وعلى آله وأصحابه الكرام، وبعد:

أقبل.. أقبل.. أقبل هلال رمضان.

أقبل، فإن عيوننا إلى الآفاق شاخصة تستشرف إلى رؤيتك، وإن قلوبنا حولها حائمة هائمة تترقب اجتلاء طلعتك، ويقول العاذلون: ما بال قلبك هائمًا بهلال رمضان؟ وهل هو إلا هلال من أهلَّة العام؟ وما دروا أنك إلى القلوب أعظم وحيًا، وأن القلوب إلى وحيك أيقظ وعيًا، وإن كانت آية الله في الأهلة تتكرر وتتجدد.

فلينظر الناظرون معي إلى هذه القوس النورانية في أول بزوغها، ألا يرون طرفيها كل واحد منهما يستقبل الآخر ويتجه إليه، ثم لينظروا إليها بعد ذلك، ألا يرون كلا الطرفين يقترب من صاحبه اقترابًا ويسعى إليه سعيًا وئيدًا، إلى أن يتعانقا ويلتحما، أفلا يجدون في ذلك إيحاءً علويًّا؟! ألا يسمعون منه نداءً خفيًّا؟

إن هذه الصورة لتمثل في أعيننا موقف المؤدب إذا أراد أن يصور للناظرين حركة الإحاطة والضم، أو حركة الانضمام والالتئام، ألا تراه يبدأ يفتح سبابته وإبهامه فتحة منفرجة ثم يأخذ في ضمها رويدًا رويدًا ليجعل منهما في النهاية حلقة مفرغة؟ هكذا تتمثل لنا ظاهرة الهلال في نشأته ونموه، كأنها فتحة إصبعين ثم انطباقهما،

إصبعين رمزيتين، شارة من شارات الرحمن يخاطب بها من أراد أن يتدبر ويتذكر، يوحي بها إلى العالم كله إيحاءة واحدة، ثم يوحي إلى المؤمنين خاصة إيحاءة أخرى.

يشير إلى الناس بها كافة أن الخلق والأمر كله بين هاتين الإصبعين، فوجهوا وجوهكم جميعًا إلى من هذه الأرض في قبضته، وهذه السموات مطوية في يمينه، فلا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ثم يشير إلى المؤمنين خاصة أن ترسموا هذه الصورة في حياتكم، فكما كنتم لربكم أمة واحدة فكونوا فيما بينكم أمة واحدة، أرأيتم كيف يتدانى طرفا الهلال ويتكامل خلقه حتى يصير بدرًا كاملًا؟ فكذلك فلتتواصل أطرافكم ولتتلاصق صفوفكم ولتتجمع قلوبكم، ثم لتتحول فيكم هذه الوحدة الجامعة وحدة مانعة، تصبحون بها يدًا على من سواكم، سلمًا لمن سالمكم، وحربًا على من عاداكم.

تلك معان قد يستوحيها المستوحي من كل هلال، ولكن ترجمة آياتها وتعبير دلالاتها اقترنت في تاريخنا بشهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وفيه يوم بدر، وفيه يوم الفتح، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

أقبِلْ إذن هلال رمضان، وليكن مطلعك على الإسلام من أفق العزة والنصر، وعلى المسلمين من فلك السؤدد والمجد، وليكن مقدمك علي البلاد أمنًا ورخاء ونعمة، وعلى العباد يمنًا وإخاءً ورحمة، أقبِلْ وسارع واقترب لتضع للناس ميزان الحق

مكان ميزان القوة، ولتقيم فيهم قانون اللين والرفق بدل قانون البطش والقسوة، أقبل على الأرض فاملأها نورًا وسلامًا بعد أن ملئت ظلمًا وظلامًا.

أقبل هلال رمضان فأشرق على ربوع الإسلام، وأنزل على أبنائها من إيحائك الرشيد أشعة قوية تقود خطواتهم، تلاحقهم في مساجدهم وأسواقهم، وتتابعهم في أنديتهم ومجامعهم، وتغشاهم في بيوتهم ومضاجعهم، تنفذ إلى قلوبهم في خلواتهم وجلواتهم.

أقبل على بيوت الله فاغمر ظاهرها وباطنها بنورك، خَّل مناراتها تأخذ زينتها عقودًا وقلائد تباهي بها مصابيح السماء، ثم افتح أبوابها ليلًا ونهارًا بعد أن كانت لا تفتح إلا لمامًا، ثم انفذ إلى باطنها فاملأه روحًا وحياة لا تخلها ساعة واحدة من راكع أو ساجد أو قارئ أو ذاكر أو مرشد أو مسترشد، وهكذا أعدها كما كانت أول يوم: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾[1].

ثم أطِلَّ على أندية المسلمين ومجامعهم وهي لاهية لاغية لا خير في كثير من نجواها، ولا يطيب لهم إلا لحوم موتاها، فألزِمْ سمارها الصوم عن اللغو والهجو

(١) سورة النور: ٣٦، ٣٧.

والرفث والفسوق، وذكِّرْهم بدستور المجالس في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾(١)

ثم عَرِّج على أسواق المسلمين وهي في جلب وصخب يسودها الجدل والمراء والخصومة والشحناء، ويفشو فيها الشح والحرص والغش والمكر والخديعة والغبن، وتروج فيها المهاترة والأيمان الفاجرة، عرج فأشرق عليها بوجهك الصبوح السموح، وألق عليها مسحة من صباحتك وسماحتك، حدد لمن فيها عقد إيمانهم حتى يخففوا من غلوائهم وجشعهم، قل لهم: أيها الناس: لقد علمت أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله إذن وأجملوا في الطلب، ثم ذكرهم بوصية نبيهم: «رحم الله رجلا سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى»(٢).

أقبِلْ هلال رمضان، واغْشِ كل عامل في عمله، وكل صانع في صنعته، وكل حاكم في حكمه، وكل ذي مهنة في مهنته، فأشعرهم بتقوى الله في أعمالهم، ومراقبته في سرهم وعلانيتهم، وناشدهم رعاية الحقوق والمصالح الموكولة لأمانتهم، وقل لهم مقالة القائد الأعظم: (إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملًا أن يتقنه)[٣].

---

(١) سورة المجادلة: ٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه -كتاب البيوع- باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف (٣/٥٧/ح٢٠٧٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١/٢٧٥/ح٨٩٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ثم لِجِ البيوت والدور والأكواخ والقصور فاطبعها كلها بطابع الإسلام، وأدبها بأدب القرآن، سوَّ بينها في الجوع والظمأ نهارها، وفي الري والشبع ليلها، لا تدع فيها أحدًا يبيت شبعان وجاره طاوٍ إلى جنبه، ولا أحدًا يظل نهاره طاعمًا راويًا وهو قادر أن يؤدي حق ربه، فأقبل علينا أفرادًا وجماعات، فأيقِظْ قلوبنا الغافلة من سباتها، وأطلق أرواحنا المكبوتة من عقالها.

أقبل شهر رمضان! أقبل شهر رمضان! أقبل شهر القرآن! أقبل فجدد عهدنا بكتاب ربنا عهدًا شاملًا كاملًا، حتى نكون من أهله حقًا وصدقًا، درسًا وفهمًا، وعملًا وحكمًا، أقبل علينا قادمًا كريمًا، واحلل بيننا ضيفًا عظيمًا، وإن يشأ الله يجعلنا أهلًا للوفاء بحقك، وكفئًا لإكرام ضيافتك... اللّٰهم فاسمع واستجب.

رمضان شهر الهدى والرحمة

الحمد الله العزيز الوهاب، الذي جعل القرآن هدى ورحمة لأولي الألباب، وشهر رمضان مغفرة لمن تاب وأناب، وصلى الله على المصطفى من أطهر الأنساب وأشرف الأحساب، وعلى آله وأصحابه خير أهل وأصحاب، وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد: استدار الزمان، وعاد شهر رمضان، عاد إلينا بعد أن نسينا كثيرًا، وبعد أن سبحنا في شئون دنيانا سبحًا طويلًا، عاد رمضان وقدر لنا أن نعود معه لنشهد أيامه الغراء، ونحيي لياليه الزهراء.

ترى هل يمتد بنا العمر فنعود إليه كرة أخرى؟ أم هل يسبق الأجل فلا نلقاه بعد عامنا هذا إلا من اتخذ عند الله عهدًا أنه سينسأ له في أجله حتى يلقى رمضان في عام قابل، معافى في بدنه، موفورًا في رزقه، ممكنًا من تدارك أمره، صادقا في نيته، راشدًا في عزيمته؟

من اتخذ عند الله عهدا بذلك فليبطئ ما شاء أن يبطئ في عمله، وليسترسل ما شاء أن يسترسل في أمله، وليسوِّف وليؤجل ما بدا له أن يسوف ويؤجل، أما والقدر مستور محجب، والأجل قد ينتهي في لمحة، والساعة لا تأتي إلا بغتة، فمن الحمق – والله– أن نبيع حاضرًا بغائب وأن نستبدل شكًا بيقين! ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾، ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[١]، وفي أي فرصة بعدها يتداركون؟ أفينتظر كل امرئ منا حتى يجيئه اليوم الذي يقول فيه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[٢]، أو يقول ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣].

كلا، بل الحزم كل الحزم، والكيس كل الكيس أن نغتنم هذه الفرصة السانحة وألا نضيع هذه الصفقة الرابحة.

نعم، إنها لفرصة سانحة، ألا تعرف من فصول الزمان فصلًا خصيبًا يورق فيه الشجر، ويتفتح فيه الزهر، وتطيب فيه التربة، وتبارك فيه الحبة فتؤتي أكلها ضعفين أو أضعافًا كثيرة؟ إنه الربيع يتحينه الزراع ويترصدونه ليلقوا فيه بذورهم وليغرسوا فيه غراسهم.

هكذا رمضان هو ربيع الأرواح، كل ما أزلفت فيه النفس من خير وبر يزكو وينمو ويربو، صيامه وقيامه وصدقاته وغدواته وروحاته كلها مباركة مضاعفة الأجر، وحسبه أن فيه ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر؟ ليلة القدر خير من ألف شهر.

فما أجدر المتخلفين منا عن الركب أن يتداركوا في هذا الربيع ما فاتهم، وأن يحاولوا اللحاق بالقافلة قبل أن ينقطع الطريق بهم! وما أجدر السائرين منا في هذه القافلة

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٥.

(٢) سورة المؤمنون: ٩٩،١٠٠.

(٣) سورة المنافقون: ١٠.

السماوية أن يضاعفوا اليوم جهودهم، وأن يستحثوا مطاياهم وركائبهم ليزدادوا اقترابًا من مثلهم العليا!

ألا وليكن أول ما نبدأ به حين نستمع إلى هذا النداء أن نلتفت التفاتة يسيرة إلى الوراء؛ لنحصي على أنفسنا سقطاتنا وزلاتنا، ولنمحو بماء الندم ما مضى من تفريطنا في حق ربنا، ولتوطن العزم على الجد والاستقامة في مستقبل أمرنا، تلك هي الخطوة الأولى في الاستجابة لداعي الله، وتلك هي حقيقة الاستغفار الذي جعله الله ضمانًا للأمن والأمان في هذه الحياة، وفيما بعد هذه الحياة، وذلك حيث يقول -عز شأنه- مخاطبًا رسوله الرءوف الرحيم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1]، فكان للأمة إذ ذاك حصانتان من البلاء: حصانة بوجود الرسول بين ظهرانيهم، وحصانة باستغفارهم لذنوبهم.

واليوم وقد ذهبت الحصانة الأولى لم يبق لنا إلا الحصانة الأخرى، فإن ضيعناها هي الأخرى بإصرارنا على إقرار الكفر والإلحاد، وإهمالنا لقمع الفجور والفساد، فسوف يسلط الله علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، وسوف يهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولن يكون لنا منه يومئذ ضمان ولا أمان، فإن من لا إيمان له لا أمان

(١) سورة الأنفال: ٣٣.

له:﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(١).

فلنبدأ اليوم عملنا بالإقلاع عن كل ظلم، والتوبة والإنابة من كل إثم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾(٢)، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(٣).

فإذا أتممنا هذه الخطوة السلبية بالتنزه والتطهر، بقي علينا أن نتبعها خطوة إيجابية بالتجمل والتكمل والبناء والإنشاء، نعم بعد أن نفرغ قلوبنا من ظلمات الميول الضارة يجب أن نملأها بنور الحكمة، فليس الشأن كل الشأن في رمضان أنه شهر الجلد والمقاومة، ولكنه فوق ذلك هو شهر الهدى والرحمة، هدى ورحمة منشوران على الأرض، وهدى ورحمة مرسلان من السماء.

فيه تزدحم بيوت الله ليلًا ونهارًا بالراكعين والساجدين، والقارئين والذاكرين، والمرشدين والمسترشدين، وفيه تفيض القلوب المؤمنة وقلوب المؤمنين رحمة وحنانًا، وبرًا وإحسانًا بالفقير والمسكين واليتيم وابن السبيل، فذلك هو الهدى، وتلك هي الرحمة المنشوران على الأرض، وفيه أنزل القرآن هدى للناس وبينات

(١) سورة الأنعام: ٨١،٨٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٧.

(٣) سورة الأعراف: ٢٣.

من الهدى والفرقان، وفيه تنزل الرحمات، وتستجاب الدعوات: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1]، فذلك هو الهدى، وتلك هي الرحمة من السماء.

ربنا فاجعلنا أهلًا لرحمتك، وأوزعنا أن نهتدي بهدايتك، ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

مغزى شريعة الصيام

الحمد لله الذي جعل أهل القرآن أهل الله وخاصته، واصطفاهم من عباده، وأورثهم الجنة وحسن مآب، والصلاة والسلام على من أظهر طريق الحق والصواب، وانقشعت به ظلمات الشك والارتياب، سيدنا ونبينا محمد، وعلى الآل والأصحاب، أكمل صلاة وتسليم، وبعد:

ما في الصوم من كبت وحرمان ليس هدفه هذا الكبت والحرمان، وإنما الصوم وسيلة إلى غاية نبيلة، إنه التدريب على السيادة والقيادة؛ قيادة النفس وضبط زمامها وكفها عن أهوائها ونزواتها، بل إنه التسامي بتلك القيادة إلى أعلى مراتبها، فلقد كنت في بحبوحة الإفطار إنما تحمي جوفك عن تناول السحت والخبيث، فأصبحت في حظيرة الصوم تفطمه حتى عن الحلال الطيب، ولقد كنت بالأمس تكف لسانك عن الشتم والإيذاء، فأصبحت اليوم تصونه حتى عن رد الإساءة، وعن إجابة التحرش والاستفزاز، فإن خاصمك أحد أو شاتمك لم تزد على أن تقول: إني صائم، إني صائم.

هكذا ملكت بالصوم زمامي شهوتك وغضبك، وأنه لصبر يجر إلى صبر، ونصر يقود إلى نصر، فلئن كان الصوم قد علمك أن تصبر اليوم طائعًا مختارًا في وقت الأمن والرخاء لأنت غدا أقدر على الصبر والمثابرة في البأساء والضراء وحين البأس، ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك لقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غدًا على عدوك، وتلك عاقبة التقوى التي أراد الله أن يرشحك لها

بالصيام، هذا الهدف الذي صورناه وحددناه إنما يقوم في منتصف الطريق الذي رسمه الله للصائمين، وأن في نهاية هذا الطريق هدفًا آخر، بل أهدافا أخر أهم وأعظم.

وفي الحق أنه لو كان كل ما يطلب من الصائم هو أن يكف نفسه عن شهواتها وانفعالاتها، ولم يكن أمامه عمل إيجابي جديد يسد به هذه الفراغ؛ لكانت إذن تجربة الصوم انتقاصًا للطاقة العاملة من ناحية دون إمداد لها من ناحية أخرى، ولكانت إذن على حد تعبير العلماء: «تخلية بلا تحلية»، أو تجارة مأمونة الخسارة، ولكنها لا ربح فيها ولا غنيمة.

فهل شريعة الصوم في الإسلام هي تلك الصورة العارية الجرداء؟ كلا، إنها عبادة ذات شطرين، وليس شطرها الأول إلا تمهيدًا وإعدادًا لشطرها الآخر، إنها شجرة جذعها الصبر، ولكن الله لا يريد للصائم أن يترك هذا الجذع قاحلًا ماحلًا، بل يريد أن ينبت على جوانبه أغصانًا من الشكر، وأن يتوج هامته بأوراق وثمار من الذكر والفكر، وأن من تأمل كلمة التقوى التي عبر بها القرآن الكريم في حكمة الصيام يجدها منطوية على هذين الشطرين: فهي في شطرها الأول كف وانتهاء، وابتعاد واجتناب، لكنها في شطرها الآخر إقبال واقتراب، وإنشاء وبناء.

وإذن فليس الشأن كل الشأن في أن يغلق الصائم منافذ حسه، ويسكت صوت الهوى في نفسه، فذلك إنما مثل إغلاق أبواب النيران، ولكن الشأن الأعظم في أن

يكون إغلاق منافذ الحس فتحًا لمسالك الروح، وأن يكون إسكات صوت الهوى تمكينًا لكلمة الحق والهدى، فتلك هي مفاتيح أبواب الجنان، ومن كان في شك من أن هذا الجانب الإيجابي هو الهدف الأخير لشريعة الصوم فليقرأ كتاب الله يجد دلائله مثبوتة في تضاعيف آيات الصوم، وليطالع سنة رسول الله يجد معالمه مبسوطة في هديه النبوي قولًا وفعلًا.

والعجيب في هذا التوجيه أن الإسلام لم يتركه دعوة مرسلة، بل وضع له مناهج معينة، ورسم له خططًا مفصلة، ذلك أنه لما جعل شهر الصوم موسمًا لانطلاق الروح من عقالها، فتح فيه للأرواح بابين تتدفق: بابًا إنسانيًّا، وبابًا ربانيًّا.

فأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الإنساني فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضًا وإمساكًا بالحفظ والادخار، وإنما يكون بسطة وسخاء بالبذل والإيثار، لا تشبع أيها الصائم جوعتك، ولا تنقع غلتك، ولكن أطعم الجائع واسق الظمآن، هذا هو الصوم كما فهمه رسولنا الأعظم -صلوات الله عليه- فقد كان أجود ما يكون في رمضان، حتى إنه كان فيه أجود من الريح المرسلة، وما زكاة الفطر في آخر رمضان إلا الحلقة الختامية، والمظهر العلني الجماعي لهذه الحركات النفسية الفردية التي تحولت فيها فضيلة الصبر إلى فضيلة الشكر؛ اتباعًا لإرشاد القرآن الكريم حين يقول: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الرباني، فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة، ورسم لها سبلًا، ذلك: تسبيح وتحميد وتكبير وتمجيد: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾(١)، تضرع وابتهال ودعاء وسؤال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾(٢)، ركوع وسجود وقيام وتشمير ونهوض: قال عليه ﷺ: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»(٣)، وما الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان إلا نهاية الشوط في هذا السير إقبالًا على الله، وانقطاعًا بالكلية إليه: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ﴾(٤).

ألا وإن ذروة الأمر وسنامه في هذا الجانب الرباني إنما هو في مناجاة الله بكلامه، وفي مدارسة كتابه، كما كان يفعل الرسول المصطفى من البشر، والرسول المختار من الملائكة، إذ كانا يتدارسان القرآن في كل عام، ولأمر ما نوه الله بهذه الصلة الوثيقة بين رمضان وبين القرآن، وجعلها أولى المناقب والمزايا التي اختص بها هذا

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) سورة البقرة: ١٨٦.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الإيمان- باب تطوع قيام رمضان من الإيمان(١/١٦/ح٣٧)، ومسلم- كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح(١/٥٢٣/ح٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة البقرة: ١٨٧.

الشهر المعظم، فقال -جلت حكمته-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾، فكان ذلك إيماء لنا بأن نجعل حظ رمضان من القرآن أوفر الحظوظ.

وبعد: فإنه إذا كان من شأن الأمم الحية التي تعنى بتاريخها وأمجادها أن تبتهج وتحتفل بذكرى مولد دستورها، لم يكن بدعة من الأمر أن يجعل الإسلام شهر رمضان هو الاحتفال بمولد دستوره السماوي الذي ختم الله به الشرائع، وأتم به مكارم الأخلاق.

ألا وإن أفضل أسلوب عرفه الناس في الاحتفال بعيد الدستور، هو أن يجعل يوم ذكراه يوم تجديد لعهد الولاء له، وتأكيدًا للحرص عليه والاستمساك به، فكذلك فليكن احتفالنا بشهر رمضان احتفالًا بالقرآن الذي أنزل فيه: تعبدا بتلاوته وسماعه، واستظهارًا لآياته، وتفقهًا في معانيه، وتأدبًا واتباعًا لأحكامه، ألا ولتكن نصب أعيننا هذه الحقائق الأليمة: وهي أن قراء القرآن وحفاظه أصبحوا يقل عددهم عامًا بعد عام، وأن القائمين بأحكامه الواقفين عند حدوده قد أصبحوا أقل القليل، فإلى القرآن يا أمة القرآن أيها الصائمون، ثم القرآن أيها المسلمون، إياكم أن يتفلت هذا الكنز من بين أيديكم، واعلموا أن الله ما كان ليعذبكم والقرآن فيكم،

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]، فإلى القرآن يا أمة القرآن.

(١) سورة الأنعام: ١٥٥.

الجانب الاجتماعي في فريضة الصيام

الحمد الله البر الجواد، الذي جلت نعمه عن الإحصاء بالأعداد، وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بالحق والإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

الصوم في الإسلام على ضروب شتى: فمنه نافلة يتطوع المرء بها من تلقاء نفسه متى شاء، ويذر ما شاء، ومنه فريضة خاصة يفرضها المرء على نفسه بالنذر، أو تفرض عليه كفارة لشيء من المخالفة أو الذنب.

كل هذه الضروب من الصوم يمكن أن يقال فيها إنها محض عبادة روحية فردية، روحية: تخص علاقة المرء بربه، فردية: غايتها إصلاح الفرد تساميًا بإرادته عن الخضوع لسلطان الهوى، وتدريبة لنفسه على اكتساب فضيلة الصبر وملكة التقوى.

ولكن هناك ضرب من الصوم يمتاز عن هذه الضروب كلها بأنه لا يخص فردًا دون فرد، ولا فئة دون فئة، ولكنه ضريبة الوفاء على الأمة جمعاء، ثم يمتاز بأنه لم يترك لأحد الخيرة في تحديد ميقاته ومقداره، ولم يوسع للناس أن يختلفوا في بدئه وختامه، ولا في صفته ونظامه، بل فرض على الجميع أداؤه في موسم معين من العام، وفي مقدار معين من الأيام، ذلك هو صوم رمضان الذي كتب على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يؤدوه معًا في وقت واحد وفي نسق واحد.

هذا الطابع الاقتراني الجماعي الشامل يكفي وحده للدلالة على أن هذه الفريضة السامية لا يراد منها أن تكون مجرد رياضة نفسية تصل بين العبد وربه فحسب،

ولكنه يراد أن تكون إلى ذلك حلقة الاتصال بين الأمة، ورباطًا بين الرحم وبين المؤمنين عامة، وأن تؤدي بهذا أو ذاك رسالة مزدوجة روحية اجتماعية معًّا.

وفي الحق أننا إذا نظرنا إلى موقع هذه الفريضة بين فرائض الإسلام وجدناها رابعة أربع من شعائره العامة العظمى وقواعده العملية الكبرى للصلاة والصيام والحج والزكاة، وإذا نظرنا من جهة أخرى في وجوه الشبه بين هذه الدعائم الأربع وجدناها كلها تتمثل فيها هذه الطبيعة الثنائية الروحية الاجتماعية، ولئن بدا لنا أحد هذين الطابعين أبرز في بعضهما منه في الآخر لنجدن الطابع الذي يقابله يراجحه ويوازنه ويعادله.

هكذا قد نرى الطابع الإنساني يكاد يستأثر بفريضة الزكاة حتى يظن في بادئ الرأي أنها من معدن اجتماعي محض، ولكن العنصر الأساسي الذي لا تقبل الزكاة إلا به عنصر روحي رباني، ألا وهو إخلاص النية في أدائها امتثالًا لأمر الله وابتغاءً لوجهه وحده، وكذلك قد نرى الطابع الروحي يكاد في ظاهر الأمر يستأثر بفرائض الصلاة والصيام والحج، ولكن الشريعة قد أمدتها بعناصر، وأحاطتها بمظاهر، وقيدتها بشرائط تجعل جانبها الاجتماعي لا يقل شرفًا وخطرًا عن جانبها الروحي.

انظر إلى الصلاة القائمة وقد نهض القائمون لها كبيرًا وصغيرًا غنيًا وفقيرًا وأميرًا ومأمورًا، ثم انظر إليهم وقد تخلل بعضهم بعضًا، وامتزج بعضهم ببعض، ثم

استقبلوا كلهم قبلة واحدة، واتبعوا كلهم قيادة واحدة، وانتظموا صفوفًا كأنها البنيان المرصوص، ثم تطابقت حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وإشاراتهم كأن أجسامهم قد تحولت جسمًا واحدًا، وكأن أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم صارت سمعًا وبصرًا ولسانًا واحدًا.

ثم انظر إلى مناسك الحج وقد اجتمع الناس إليها من أقطار الأرض في صعيد واحد حفاة أو شبه حفاة، عراة أو شبه عراة، متجردين من كل زينة الحياة إلا ثيابًا كأنها ثياب ما بعد الحياة، وقد محيت من بينهم هكذا فوارق الأحساب والأنساب، والمناصب والألقاب، ثم استمع إليهم وقد أخذوا يرددون شعارًا واحدًا هو شعار الإقبال على الله، والإعراض عما سوى الله، من هذه الزاوية عينها ننظر إلى فريضة الصيام في بلد تعظم فيه شعائر الإسلام، فنرى فيها مظهرًا ثالثًا من مظاهر هذا التماسك وهذه الأخوة والمساواة الإسلامية.

ألا ترى الناس إذا رفعت راية الهلال في سماء رمضان وقف كلٌّ مكانه على قدم الاستعداد كأنهم جند يتدربون على الطاعة والنظام، فأخذوا كلهم يرهفون أسماعهم، ويفتحون عيونهم ترقبًا لإشارة القائد الأعلى إليهم بالإقدام أو بالإحجام؟ وما هو إلا أن تمضي الليلة الأولى من الشهر حتى يتلقوا طوال الشهر كل يوم عن هذه القيادة العليا أمرين متعاقبين: أمرًا كلما طلع الفجر بالإحجام عن كل مشتهياتهم، وأمرًا كلما غربت الشمس بالإقبال على الحلال من تلك المشتهيات،

فتراهم في لحظة واحدة قد تحركوا طوع الأمر حركة واحدة إيجابية أو سلبية، وتراهم قد ارتسمت عليهم من هذه الحركة صورة لازمة لا تفارقهم نهارهم أو ليلهم، فلا ترى منهم في النهار طاعمًا ولا راويًا، ولا ترى منهم في الليل ممسكًا ولا طاويًا، بل تراهم وقد انطبعت على نظام حياتهم مسحة جديدة من هذا النظام في عملهم وراحتهم، ونومهم ويقظتهم، وسائر شئونهم وتصرفاتهم، حتى إذا رفعت راية الهلال في السماء لشوال كان ذلك أمرًا بتسريح هذه المعسكرات المنشورة في كل مكان، فعاد كل جندي إلى سيرته الأولى مدربًا مجربًا.

هذه كما ترى قواعد الإسلام ودعائمه الكبرى، قد جعل الله كل واحدة منها قطبًا ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربه، وطرف يربطه بإخوانه المؤمنين، أو نقول: إنه جعل كل واحدة منها ينبوعًا لمحبتين لا يكمل الإيمان إلا بهما مجتمعتين: الأولى المحبة لله، والأخرى المحبة في الله.

هكذا يريد الله أن يجعل من عبادتنا شعارًا لوحدتنا، بل يريد أن يتحول هذا الشعار شعورًا، وأن يصير هذا الشعار نارًا ونورًا، نارًا تفري قلوب الأعداء، ونورًا يسري إلى قلوب الأولياء تواصلًا وتراحمًا وتساندًا وتعاونًا، معان تتفتح أبوابها في كل عبادة جماعية، ولكنها في عبادة الصوم أجلى وأظهر.

أجل إن تجربة الصوم المشترك لتذكي قلوب الصائمين لهذه العاطفة أشد مما يذكيها الاشتراك في عبادة أخرى، إنها زمالة في الجهاد، فلن يسع الزميل ذا الفضل والسعة

أن يمسك فضله عن زميله المتخلف عنه في الزاد والعتاد، هكذا كان صوم رمضان من جانبه النفسي عفة وزهدًا وصبرًا، فأصبح من جانبه الاجتماعي رحمة وجودًا وشكرًا، هو من الناحية الأولى تجلد على الشدائد والآلام، ومن الناحية الأخرى رفق وإرفاق بذوي الشدائد والآلام.

وبعد، فإن في صوم رمضان معنى اجتماعيًّا آخر أعظم وأسمى لا نظير له في سائر العبادات، ذلك أنه احتفال بأكرم حادث وأيمن ذكرى في تاريخ الأمة الإسلامية، بل في حياة الإنسانية جمعاء، إنه احتفال بعيد الدستور السماوي الخالد الذي تتبدل الدساتير ولا يتبدل، وتعدل التشريعات والقوانين وليس فيه عوج، ذلك هو دستور القرآن الذي أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

ألا فلنجدد ذكره وذكراه بقلوبنا وألسنتنا، ولنردد عهده ووصاياه على أهلنا وقومنا، إلى أن يجيء اليوم الذي نجد حكمه قائمًا بيننا؛ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

(١) سورة المائدة: ٥٠.

ليلة القدر

الحمد لله على نعمه السابغة، وأفضاله البالغة، وأزكى الصلاة وأتم التسليم على من أيده الله بالمعجزات الظاهرة، وجمع له شرفي الدنيا والآخرة، سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

قال التلميذ لأستاذه: نبئني أيها المربي الفاضل ما سر هذا التكريم البليغ وهذه الحفاوة العظمى التي يختص بها شهر رمضان من بين شهور العام؟

قال المربي: لأنه كما قال الله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[1].

قال الطالب: ألم ينزل شيء من القرآن قط في غير رمضان؟

قال المربي: بلى، في كل الشهور قد نزل قرآن، ولكن أول شذرة قرآنية هبط بها جبريل على قلب محمد ﷺ كانت في شهر رمضان، حينما كان محمد يعبد ربه في غار حراء، فكانت هذه نقطة تحول بين عهدين، كانت أول قطرة من غيث الرحمة الإلهية التي جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، من الضلالة إلى الهدى، من الشقوة إلى السعادة، ثم تتابع الغيث في مدى ثلاث وعشرين سنة، حتى أكمل الله دينه وأتم نعمته بإتمام هذا الذكر الحكيم، كانت الإيحاءة القرآنية الأولى إذن هي باكورة هذه النعمة العظمى، وارتبطت ذكراها بتاريخ نزولها، فكلما جاء رمضان

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

ذكرنا هذه الهدية، وذكرنا من أهداها، وكان حقًّا علينا شكره عليها، وتجديد ولائنا له ولها.

قال الطالب: وهل استغرقت هذه النزلة الأولى من الوحي القرآني طوال شهر رمضان الأول؟

قال المربي: كلا، بل كانت في لمحة خاطفة انبثق عنها فجر ليلة من لياليه.

قال الطالب: ما بالنا إذن نحتفل بالشهر كله؟ ألم يكن بحسبنا أن نحتفل بهذه الليلة الفذة وحدها.

قال المربي: أتحسب أن النور الذي انبثق في تلك الليلة كان هكذا شعاعًا ضئيلًا لا يضيء إلا قدر موضعه؟ لقد كان له إشعاع غامر لا يسعه الشهر، بل يفيض على الدهر، لقد كانت ساعة سعيدة سعد بجوارها ألف ساعة، وكان أقل ما يضيء به ويجب الوفاء به لرب هذه النعمة أن نشتغل بشكره في مدى ذلك الشهر.

قال الطالب: هذا حسن، ولكننا سمعنا الله ينوه في كتابه بذكر شهر رمضان، فإذا كانت سائر ليالي رمضان إنما نالت هذا الشرف لجوارها تلك الليلة التي نزل فيها القرآن، أفلم تكن هذه الليلة نفسها أحق أن ينوه القرآن بها مثل ما نوه بالشهر كله أو أعظم؟

قال المربي: زادك الله يا بني فقهًا وفهمًا، لقد كان الأمر كما قدرت، لقد نوه الله في كتابه بشهر رمضان مرة واحدة، ونوه بالليلة نفسها مرتين، وسماها باسمين

كريمين: سماها الليلة المباركة فقال: ﴿حمٓ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[1]، وسماها ليلة القدر ذات القدر والشأن العظيم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[2]، وأنزل في شأنها هذه السورة الكاملة المسماة باسمها.

قال الطالب: لقد كنت تحدثنا أن رمضان كله ذو شأن وقدر، وأن العمل فيه عظيم الأثر مضاعف الأجر، فإذا كانت كل ليالي رمضان ذات قدر، فما نرى إذن لليلة التي نزل فيها القرآن مزيد فضل بهذه التسمية على سائر الليالي؟!

قال المربي: ما أراك يا بني إلا قد خذلتك الآن ذاكرتك اللغوية، أنسيت الفرق بين أن يكون الشي ذا قدر ما، وبين أن يكون هو صاحب القدر، كأن ما عداه بالقياس إليه ليس شيئًا مذكورًا؟

قال الطالب: لا تؤاخذني ما نسيت، ولكن هل تأذن لي أن أسأل: إلى أي مدى تصل نسبة هذا الفرق بين قيمة الأعمال في ليلة القدر وبين قيمتها في سائر ليالي رمضان؟

قال المربي: سأمثل لك ذلك: ألا تعرف أن مضاعفة قيم الأعمال تكون في العادة بالآحاد أو بالعشرات أو بالمئات؟ فهل تقر عينًا إذا قلت لك إن العمل في ليلة القدر يربو على العمل في ثلاثين ألف ليلة غيرها؟

---

(١) سورة الدخان: ١-٣.

(٢) سورة القدر: ١.

قال الطالب: ما عهدناك تغلو وتسرف في تقدير الأمور، ثلاثون ألف ليلة؟! من أين لك هذا؟!

قال المربي: من كتاب الله تعالى، اقرأ إن شئت: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ﴾ لم يقل من ألف ليلة، ولكن قال: ﴿ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾.

قال الطالب: تبارك الذي لا تنفذ خزائن نعمته، نبئي إذن: هل هذا الفضل العظيم لا يزال في متناول العاملين المخلصين منا في كل رمضان، أليس ذلك كان خصوصية الليلة المعينة التي نزل فيها القرآن أول مرة؟

قال المربي: يا بني إنه لو كان الأمر كما زعمت في شأن هذه الليلة، أقول: لو كانت فضيلتها إنما هي لليلة التي نزل فيها القرآن أول مرة لتحدث إذن القرآن عنها كما يتحدث عن حادث تاريخي مضى وانقضى، ولقال إذن إنها كانت خيرًا، وكانت سلاما، وأنها تنزلت فيها الملائكة، ولكنه يتحدث عنها حديثه عن شيء متكرر مستمر فيقول: إنها «خير»، وإنها «سلام»، وأنها ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾، فهي إذن باقية ما بقيت على الأرض طائفة من الأمة مستمسكة بالحق عاملة على ظهور كلمته، ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولقد علمنا أن النبي ﷺ وصحابته -رضوان الله عليهم- كانوا يلتمسونها في رمضان كل عام.

قال الطالب: يلتمسونها؟ أليست هي ليلة معينة معروفة في رمضان الأول تتكرر في مثل يومها من كل عام؟ ألسنا متى عرفنا تاريخ النجم الأول من القرآن اتخذناه رقمًا ثابتًا في كل رمضان؟

قال المربي: إنها ليست دورة فلكية آلية، إنها منحة ربانية بارك الله بها الليلة التي يشاء إنزال الملائكة والروح فيها، وقد كانت ليلة القدر الأولى هي باكورة الوحي في اليوم السابع عشر من رمضان فيما رواه المحققون من المؤرخين، واعتمده المحققون من المفسرين استنباطًا من الآية الكريمة التي في سورة الأنفال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[1]، فإن يوم التقاء الجمعين وهو يوم بدر كان في السابع عشر، ولكنها تنقلت بعد ذلك في زمن النبي وأصحابه أنفسهم، فكانت في الحادي والعشرين، وفي الثالث والعشرين، وفي الخامس والعشرين، وفي السابع والعشرين، وقد أقسم أبي بن كعب -رضي الله عنه- فيما رواه مسلم أنها في السابع والعشرين[2]، يريد -والله أعلم- في عامه ذاك، ولكن جمهور العلماء أخذوا به على عمومه.

---

(١) سورة الأنفال: ٤١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح(١/ ٥٢٥/ح٧٦٢) عَنْ زِرٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، يَقُولُ: وَقِيلَ لَهُ إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: «مَنْ قَامَ السَّنَةَ أَصَابَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ»، فَقَالَ أُبَيٌّ: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّهَا لَفِي رَمَضَانَ، يَحْلِفُ مَا يَسْتَثْنِي، وَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ، هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَمَرَنَا بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِيَامِهَا، هِيَ لَيْلَةُ صَبِيحَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، وَأَمَارَتُهَا أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِهَا بَيْضَاءَ لَا شُعَاعَ لَهَا».

وأنت أرأيتك لو كنت في يوم معين ثابت في كل عام، أفكنت تقبل على الله يومها وتعرض عنه في سائر الأيام؟! فما يضيرك يا بني أن تتعرض لنفحاتها بإحياء بضع ليال من أواخر هذا الشهر تكثر فيها ذكرك لله، وبرك بخلق الله؟ إنها يا بني فرصة ثمينة بالحرص عليها والسعي إليها، وما أحسن قول القائل فيها: إنها ليلة ذات قدر، أنزل فيها كتاب ذو قدر، على نبي ذي قدر، في أمة ذات قدر: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾[1].

كتب الله فيها لنا ولك العافية والأمن والسلام.

(١) سورة القدر: ٤ – ٥.

للصائم فرحتان

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، هدى وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث بجوامع الكلمات، الآمر بالخيرات، الناهي عن المنكرات، وعلى آله وصحبه السادات، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد: وتنطوي صحيفة رمضان، وتنفض سوق كانت عامرة، ربح فيها من ربح، وخسر من خسر، وحرم من حرم، على تفاوت كبير في درجات الربح أو الخسر أو الحرمان، وتعود الحياة الرتيبة الأولى، فلا حرج اليوم على أحد أن يستمتع في أية ساعة شاء من ليل أو نهار بالحلال الطيب من متع الحياة، وترى الصائمين والمفطرين اليوم فتحسبهم قد أصبحوا على قدم المساواة، ولكن هل هم في الحقيقة سواء؟ فلنراجع معهم حسابهم.

وقبل أن نشير إلى بعض المعاني الإيجابية التي أفادها الصائمون، وحرم ثوابها المفطرون، ينبغي أن ننبه إلى ناحية سلبية، ولكنها أساسية من حق الصائمين أن يفيدوا بها رصيدهم، تلك هي السلامة والنجاة من المخاوف الوهمية، التي كانوا بها يخوفون، فقد قيل لهم عند إقبال رمضان: إنكم سوف تموتون جوعًا، أو تهلكون عطشة، أو تنهكون مرضًا، فانظر اليوم إليهم واملأ ناظريك: إنهم لم يموتوا جوعًا، ولم يهلكوا عطشًا، ولم ينهكوا مرضًا كما كان يتوقع الشامتون بهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ

ﭐنقَلَبُواْ فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾[١]، إنهم لمغامرون، إنهم لن يخرجوا من هذه المغامرة سالمين، قالوا: فلنجانب إذن طريقهم، ولا نتبع سبيلهم، لنكن أشد منهم حرصًا على حياتنا وعلى عافيتنا، فأي شيء أثمن في الدنيا من الحياة؟! وأي شيء أثمن في الحياة من العافية؟!

هكذا كان الشيطان يخوف بالأمس أولياءه، وسيدفعهم إلى السخرية من أعدائه، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون، ومن سخريتهم يسخرون، لقد خرج المؤمنون من هذه التجربة سالمين، فخيبوا شماتة الشامتين، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

هذه واحدة هم جديرون أن يفرحوا بها، تلك كانت نعمة السلامة، فانظر بعدها إلى نعمة الغنيمة، لقد خرج المؤمنون من هذه التجربة أصلب عزمًا، وأقوى قلبًا، وأصدق تجربة لمشاكل الحياة، وأكبر أملا في اقتحام صعابها، لقد غالبتهم المادة فغلبوها، وأرادت الشهوات أن تستعبدهم فاستعبدوها، فأي شيء يقف اليوم أمام عزيمتهم؟! وأي شيء بعد اليوم يخفض من عالي همتهم؟! إن شيخوخة الشيخ منهم لتتحدى جلادة الشبيبة في فئة من الشباب فروا من الميدان، وهربوا من هذه التجربة اليسيرة هروب الجبان.

---

(١) سورة المطففين: ٢٩ – ٣٢.

مسكين من لم يجرب تجربة الصوم! إنه لم يذق لذة هذا الانتصار، وما أدراك ما هذا الانتصار؟! إنه انتصار يسمو على كل انتصار، أرأيتك حين تنتصر على عدوك المجهز بالسلاح والعتاد المؤيد بالحلفاء والأنصار، ألا تراه نصرًا جديرًا بالفخر؟! إنه مع ذلك انتصار رخيص بالقياس إلى هذا الانتصار، ذلك أنك حين تصارع عدوك تصارعه وقد جندت له كل قوتك وعقلك وقلبك وشهوتك وغضبك وحسك ووجدانك.

أما حين تصارع نفسك التي بين جنبيك فإن أكثر هذه القوى تخذلك، وتتخلى عنك، وتتركك وحيدًا في الميدان ليس معك إلا دينك وضميرك، فإذا انتصرت والحالة هذه فقد برهنت على أن فيك عنصرًا سماويًا نبيلًا، وأن فيك جنديًّا من جند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

نعم، ليست حياة الصوم دائمًا حياة صراع وكفاح، عند الوادعين القادرين تجربة محتملة، ولكنها مسئولية ملتزمة، فمن لم يشعر فيها بلذة الانتصار على الهوى شعر فيها بلذائذ أخرى، وذلك أنه كلما قطع مرحلة من صومه وجد غبطة بنجاحه وتوفيقه في تلك المرحلة، وأحس في نفسه خفة ونشاطًا، ورغبة في متابعة السير والعمل، حتى إذا ألقى العصا واستقر به النوى في ختام عمله بعد إتمام واجبه وجد هنالك من ثلج الصدر، وطيب النفس وقرة العين ما لا يجد بعضه القاعدون الوادعون.

مسكين من لم يجرب تجربة الصوم! إنه محروم من هذه اللذائذ كلها، إنه محروم حتى من تذوق المتع الحسية، إن كان لا يدرك إلا المتع الحسية، أما درى أنه كلما اشتدت المخمصة كان الطعام أهنأ وأمرأ، وكلما اشتد الظمأ كان الشراب أنقع وأنفع؟

هكذا يجتمع للصائم عند فطره متعة بالسلامة والعافية، ومتعة بالانتصار على الهوى، ومتعة بالتوفيق لإتمام العمل، ومتعة بالري على ظمأ، والنيل بعد انتظار وطلب، كل هذا وأمثال هذا إنما يمثل إحدى الفرحتين بل أدنى الفرحتين، أما الفرحة الكبرى المدخرة لا يحيط بها وصف الواصفين، ولا يقدر قدرها إلا رب العالمين، في الحديث الصحيح القدسي يقول الله تبارك وتعالى: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ، إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، للصَّائم فرحتان: فرحةٌ عندَ فِطْرِه، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربهِّ»[1].

نقول: أما الفرحة الأولى فقد فزنا بها، وأما الفرحة الأخرى فإنا لها منتظرون، وإنا إلى الله فيها راغبون: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[2].

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في سننه- أبواب الصيام- باب ما جاء في الصيام وفضله (٢/٥٥٧/ح١٦٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة يونس: ٥٨.

وداع رمضان

الحمد لك يا رب أعنتنا على الصيام، فأوزعنا اللّٰهم أن نقوم بواجب الشكر على نعمك، وتوفية حق كرمك، وأفضل الصلاة على من يشفع لنا يوم الحساب، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم على طريق الحق والصواب، وبعد:

مهلًا مهلًا شهر رمضان! ما أعجلك في ارتحالك عنا أيها الضيف الكريم، هلا أمتعتنا بك فترة أخرى يتدارك فيها المقصرون تقصيرهم ويزيد فيها المشمرون تشميرهم!

يا سبحان الله! ما أسرع ما يطوى العمر! وما أعجل ما تقضي الأيام والليالي كأنها أوراق الخريف عصفت بها ريح القدر! وهل الحياة كلها إلا لحظات محدودة، وأنفاس معدودة، تغمر الناظرين إليها في ساعة إقبالها، فإذا أدبرت فإنما هي حلم من الأحلام، وإنما البقاء والدوام لمن له البقاء والدوام، كل شيء هالك إلا وجهه، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

شهر رمضان! أين هو شهر رمضان؟! ألم يكن منذ لحظات بين أيدينا؟! ألم يكن ملء أسماعنا، وملء أبصارنا؟! ألم يكن هو حديث منابرنا، وزينة منائرنا، وبضاعة أسواقنا، ومادة موائدنا، وسمر أنديتنا، وحياة مساجدنا؟! فأين هو الآن؟! ها هو ذا يهز آخر خيط من خيوطه لينزعه من أفقنا! ها هو ذا يكابد آخر نفس من أنفاسه ليلفظه أمام أعيننا، فلن تكون إلا طرفة عين حتى تنفض مواسم التقوى، وبلابل الروح قد هدأ تغريدها، وإلى الله المصير.

أي شهر رمضان! ما أبعد الشبه بين يوميك: يوم قدومك، ويوم رحيلك! لقد كان يوم إقبالك يومًا تفتحت له عيوننا وقلوبنا، فاستقبلناك بملء النفس غبطة واستبشارًا وأملًا، استبشرنا بعودة مجالك الطهور الذي تسبح فيه أرواحنا بعد جفافها وركودها، واستبشرنا بساعة صلحنا مع ربنا بعد طول إعراضنا وإباقنا، وكم تمنينا أن نكون أوفياء بحقك! وكم أملنا أن نكون أقوياء على برك ورفدك!

أما اليوم فإننا نودعك وملء النفس وجل وخجل، وإشفاق وقلق، لا ندري إلى أي مدى كان وفاؤنا بواجب العمل؟ وإلى أي مدى كان تحقيقنا لفسيح الأمل؟ فليت شعري! كيف وجدتنا؟ وماذا عسى أن تكون حملت معك من ذكرياتنا؟ هل قبلت أعذار المعتذرين؟ هل أرضاك صوم الصائمين، هل أعجبك قيام القائمين؟

ما أكثر الذين اعتذروا إليك بمشاغلهم ومتاعبهم! وما أكثر الذين تعللوا لك بضعفهم ومرضهم! وما كان الذي بهم -والله- من مرض الأبدان، ولا من ضعف وسائل الإمكان، ولكنه مرض القلوب وصغر النفوس وخور العزائم، لقد خانتهم رجولتهم فلم يحاولوا أن يقتحموا العقبة، بل فروا من الميدان قبل الملحمة، وحكموا على أنفسهم مقدمًا التجربة، فدعهم الآن يقاسوا مرارة الألم، ويتجرعوا مرارة الندم، إذ وجدوا إخوانهم الذين قبلوا التجربة قد خرجوا منها بسلام، فلم تنقص منهم شيئًا، بل زادتهم إيمانًا إلى إيمانهم، وقوة إلى قوتهم، وتبين أن تلك

المخاوف إنما كانت وهمًا من الأوهام، وخدعة من خدع الشيطان يخوف بها الأطفال وأشباه الأطفال!

أي شهر رمضان! قل للذين خدعوا هذه المرة: لا تخدعوا بمثلها مرة أخرى، وقل لهم وأنت على عتبة باب السفر: من أضاع الفرصة في أيامي فليتداركها في أيام أخر، قل لهم: إن باب التوبة مفتوح على مصراعيه﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

أما بعد: يا شهر الصيام، فإني أخشى أن تكون حفظت في سجلك عن جمهرة الصائمين القائمين أشد وأقسى مما سجلته على كثير من المفطرين المقصرين، فقديمًا قيل: رب معصية أورثت ذلة وانكسارًا خير من طاعة أورثت علوًّا واستكبارًا، فهؤلاء المفطرون إذا اعترفوا بذنوبهم، وشدوا ما تراخى من عزمهم كانوا أحرياء أن يتوبوا، وأن يتوب الله عليهم، أما أولئك المتبجحون الذين يحسبون أنهم متى أمسكوا عن الطعام والشراب فقد أدوا كل حقك، وقاموا بكل واجبك، على حين أنهم في صومهم لم يدعوا قول الزور ولا العمل به، فهؤلاء هم الذين أساءوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وهؤلاء هيهات لهم أن يتوبوا؛ لأنهم لا يظنون أنهم اقترفوا ذنبًا.

أما دروا أن الله حين نهى الأنبياء أن يوجهوا لآبائهم حرفًا من التأفف والتضجر كان هذا منه ترقيًا وتساميًا بهم في البعد عما وراء ذلك من ضروب الأذى

والعدوان؟ وأنه كذلك حين نهى الصائمين عن طيبات المشارب والمطاعم كان هذا ترقيًا وتساميًا بهم في التطهر عما قبل ذلك من المحارم والمآثم؟ وهل يعقل أن ينهى الصائم عن رد الإساءة والإيذاء، وأن يبيح له البدء بالفحش والإيذاء؟! أليس الصوم كما عرفنا هو أقصي الطهر وغايته؟ فكيف يؤدي نهايته من لم يؤد ركنه وفريضته؟!

أيها الإخوة الصائمون القائمون: أفلا تجلسون معي قليلًا نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب؟ هل نسينا أن الميزان دقيق، وأن الناقد بصير؟ فماذا يكون جوابنا لو قيل لنا: كنتم في صيامكم لاغين رافثين، وكنتم في قيامكم ساهين لاهين؟! من منا إذن لم يلغ ولم يرفث في صيامه؟ ومن منا لم يلهُ ولم يسهُ في قيامه، وكيف إذن نتكل على أعمالنا؟ وكيف نطمع إلا في رحمة ربنا؟

أيها الإخوة المؤمنون: هل أدلكم على طهرة تنقون بها أعمالكم من أدرانها، وتخلصونها من شوائبها؟ اغتنموا هذه اللحظات الباقية أمامكم، فاغسلوا قلوبكم الآن بدموع الاستغفار، وارفعوا أكف الضراعة إلى الودود الغفار، قولوا معي: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: ١٩٣ – ١٩٤.

وطهرة أخرى أعظم وأقوم: أن تودعوا هذا الضيف الكريم بما يودع به الضيف الكريم، فإن الضيف الكريم لا يودع بمجرد التحيات والتسليمات، ولكن يجهز بالتحف والطرف؛ ويزود بالهدايا والعطايا، أتدرون ما تحفة ضيفكم؟ زكاة فطركم؛ إنها طهرة صومكم، وزكاة نفوسكم، وصلاح أمركم، تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال، ورزقنا وإياكم الصدق والإخلاص في كل حال، آمين آمين.

المعاني الإنسانية في عيد الفطر

الحمد لله الذي أعطى وأنعم، وهدى إلى الرشد وألهم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله، وصفيه وخليله، وعلى آله وصحابته الكرام، أولي المناقب والأحلام، صلاة وسلامًا دائمين ما دامت الأيام، وبعد:

هل تأذنون لي أن أذكركم بشيء من مطالب الإسلام في عيد الفطر، وشيء من الأهداف التي يرمي إليها من وراء تلك المطالب؟ وهل يأذن القائمون على شئون المجتمع في مختلف الأقطار الإسلامية أن أذكرهم بشيء من واجبهم في القيام على هذه الأهداف، وفي تحقيق تلك المطالب؟

أما أنتم أيها الإخوة فسأحدثكم قبل كل شيء عن هذا المعنى الذي يخالج صدورنا اليوم، وقد عدنا إلى الاستمتاع الحلال بحرياتنا الطبيعية بعد أن أتممنا رحلة الصوم في جد وعزيمة، وفي صدق وأمانة، هذا الابتهاج والاغتباط لن أحدثكم عنه بوصفه شعورًا فطريًا، ومعنى عاديًا، ولكني أحدثكم عن نظرة الإسلام إليه، وعن الأسلوب الذي اختاره لنا في التعبير عنه، ذلك أن الإسلام لم يشأ أن يبقى هذا الفرح في صدورنا شعورا منزويا منطويًا، ولا أن يتمثل في مظهر تافه خافت، بل طلب إلينا أن نعلن هذا الابتهاج عاليًا مدويًا، وأن نبرزه في صورة حية قوية، ثم إنه في الوقت نفسه لم يشأ أن ينقلب هذا الإعلان ضربًا من اللهو الفاجر، أو فنًا من العبث العربيد الماجن، بل أراد أن يتمثل في صورتين كريمتين؛ صورة روحية

نتوجه بها إلى الله ذكرًا وشكرًا وتكبيرًا وتحميدًا، وصورة إنسانية نتوجه بها إلى الخلق عطفا ورحمة ومعونة وتكرمة.

لن أطيل حديثكم عن الجانب الروحي، فها نحن أولاء نرى شعائره ظاهرة باهرة في تلك الجموع الحاشدة للصلوات والدعوات صادعة: "باسم الله معلية كلمة الله،"، ولكني أريد أن أحدثكم عن الجانب الإنساني الذي هو في حقيقة الأمر آكد الجانبين، وأوجبهما في نظر الإسلام، وأعمقهما أثرًا في حياة الأمة الإسلامية، ذلك هو نظام الصدقات والزكوات الذي كتبه الإسلام علينا في نهاية رمضان، إنه لتشريع فذ في بابه، لا أقول إنه منفرد وحيد بين التشريعات العالمية فحسب، بل أقول: إنه لا نظير له في التشريعات الإسلامية نفسها، ذلك أن الزكاة في العادة إنما تفرض على الأغنياء في فضول أموالهم، أما زكاة الفطر فإنها عند جمهور الأئمة واجبة على الأغنياء والفقراء على السواء، يواسي بها الغني الفقير، ويواسي بها الفقير من هو أفقر منه، فكما كانت ضريبة الصبر والزهد فرضًا في رمضان على الجميع أصبحت ضريبة البذل والسخاء تنتظم الجميع: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[1].

(١) سورة الطلاق: ٧.

هكذا تساوينا أمس كلنا في الجوع والعطش، وهكذا يجب أن نتساوى اليوم كلنا في الشبع والري، هذا هو الشكر العملي، وما كانت صلاة العيد وتكبيراته إلا ضربًا من الشكر القوي، فهل تعلمون أن الله لا يستمع إلى قول إلا إذا كان يصدقه العمل؟ هل تعلمون أن الكلم الطيب حين يحاول الصعود إلى السماء يتوقف في أثناء الطريق انتظارًا لرفده من العمل الصالح، فإن لم يصل إليه هذا الرفد رد على صاحبه، وإن وصل إليه رفعه حتى يتم معراجه إلى الملإ الأعلى؟ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1].

إني أدعوكم إلى التفكير مليًّا في سر هذا التشريع، لتعلموا أنه تشريع مثالي يخلق المجتمع المثالي، انظروا إلى هذه التربية العملية على الوحدة والمساواة؛ مرتين تتناول الأمة كلها جملة واحدة لتتذوق مع المحرومين طعم العوز والحرمان، ثم تصعد الأمة كلها آخذا بعضها بأيدي بعض لترتفع فوق مستوى العوز والحرمان، وتتذوق مع المرزوقين طعم الارتفاع الذي يليق بالإنسان، بهذا وحده يكون يوم العيد يوم بهجة وسرور، فهل أعيادنا حقًّا أعياد بهجة وسرور؟!

كيف تكون اليوم بهجة وسرورًا لمن تقذى عينه مناظر البائسين؟ ويتأذى سمعه بسؤال السائلين، ويتفطر قلبه بشكوى الشاكين؟ كلا، إن الإسلام يطالبنا ألا نسمع اليوم شاكيًا ولا باكيًا؛ ولا نرى جائعًا ولا عاريًا، إنه يقول لنا: لا تطلع عليكم

---

(١) سورة فاطر: ١٠.

شمس هذا اليوم وفي بيت من البيوت جائع أو عريان، وفي طريق من الطرق سائل أو محروم، يجب أن تملأ البهجة كل النفوس، وترتسم الابتسامة على كل الوجوه، يجب أن تشعر الأمة كلها في هذا اليوم بعزة الاستغناء، وأن يمحى من بينها ذل السؤال، هذه هي تعاليم الإسلام في نصها وروحها، وإنه لتجربة لها ما بعدها.

والآن أوجه كلمتي إلى القائمين على شئون المجتمع في مختلف الأقطار الإسلامية: ماذا صنعنا في تحقيق هذه المثل العليا، إلى متى ندع هؤلاء البائسين والمتبائسين في يوم العيد يطوفون بالأهلين في منازلهم، ويرهقون المارة في طريقهم، ويرهقون المصلين على أبواب مساجدهم؟ إنها لوصمة في جبين المجتمعات الإسلامية، وإنها في يوم العيد لأكبر عار وشنار.

لقد رسم الإسلام لنا طريق العزة والكرامة، فهل من وسيلة إلى تمهيد هذا الطريق وتنظيمه، الكلمة الآن لجماعات البر في الإسلام، ولسائر منظماته وحكوماته.

الأعياد الإسلامية «مقاصدها وآدابها»

الحمد لله مشرع الأحكام، المميز بين الحلال والحرام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أزال بيانه كل إبهام، وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وبعد: كانت الأمم الماضية تعرف الأعياد لهوًا ولعبًا، وشرابًا وطربًا، وجلبة وصخبًا، بل إن بعض الأديان القديمة كانت تتخذ أعيادها الدينية من مادة الإباحية المستهترة، والفوضى الخلقية السافرة، ناهيك بأعياد (باكوس) عند قدماء اليونان ثم عند الرومان، وهي أعياد كانت تكرر أكثر من مرة في كل عام، وكان يفرض فيها على الرجال والنساء أن يخلعوا جلباب العفة والحياء، وأن يتحرروا من كل قيود الغيرة والشرف، وأن يطلقوا العنان لغرائزهم الحيوانية الدنيا لكي تقضي لبانتها علنًا جهارًا؛ إرضاء لآلهتهم فيما يزعمون، حتى إن من تأبى أو تعفف عن المشاركة في هذه الملاهي الداعرة حكم عليه رؤساء الدين أن يدفن حيًّا في مغارات بعيدة وسراديب مجهولة إلى أن يأتيه الموت أو يقضي الله قضاءه فيه.

وفي الطرف الأقصى المقابل لهذه المادية الجامحة نرى الروحية الزاهدة المنطوية المنزوية تكتفي في تجديد ذكرياتها المقدسة إما بترديدها في داخل النفس، وإما بالتعبير الخافت عنها في زوايا المعابد، ترتيلًا لبعض الدعوات، أو أداء لبعض المراسيم والإشارات.

ويجيء الإسلام بموازينه العادلة، ومعاييره الدقيقة الفاصلة، فيلقي على فكرة الأعياد ضوءًا جديدًا يبعد بها عن انحلال المادية وفجورها، وعن تزمت الروحية

وفتورها، يجمع ما في كلتا النزعتين من خير وسداد، وينفي ما في كلتيهما من خلل وفساد، ثم يضيف إليها عناصر صالحة أخرى، ويؤلف من جملة ذلك صورة حية قوية جميلة في نطاق من الطهر والكرامة والصون والعفاف، تلك هي فكرة الأعياد في الإسلام.

فالصبغة الأولى للأعياد الإسلامية صبغة روحية، لكنه روح غير صامت ولا خافت، إنه روح صامت متوثب، استمع إلى هذا النشيد القوي الذي يتجاوب صداه في الطرقات، على ألسنة الذاهبين إلى العيد أفراد وجماعات، وفي المساجد على ألسنة المصلين أو المنتظرين لصلاة العيد، وفي البيوت على ألسنة المصلين عقب صلواتهم المكتوبة في أيام التشريق، وفي منى عند الجمرات على ألسنة الحجاج، استمع إلى هذا النشيد، إنه يفجر الروح وانطلاقها فرحًا وابتهاجًا بإتمام رحلتها الشاقة الموفقة، رحلة الصوم أو رحلة الحج، ثم استبشارًا وتطلعًا إلى المستقبل بعين الثقة والأمل، إنه شعار الانتصار الروحي في التجربة الماضية، والتصميم على متابعة هذا الانتصار الروحي في التجارب المقبلة: (الله أكبر ولله الحمد).

هذا العنصر الروحي الحماسي يطالبنا الإسلام بأن نبرز جوهره في مظهر من الزينة والجمال، وفي جو من المتعة والرفاهية البدنية، في غير إسراف يشوه كماله ويقلبه إلى ضده.

نعم لقد كانت فريضة التقشف والحرمان ضريبة محتومة في زمن الصوم وزمن الحج، فإذا جاء يوم العيد فلا تقل: قد حل ما كان محرمًا، ولكن قل: قد وجب ما كان محرمًا، وحرم ما كان واجبًا، نعم لا صوم اليوم ولا حرمان من الطيبات: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[1]، ثم لا تقشف اليوم ولا حرمان من الطيب والزينة، فليأخذ كل منا أحسن زينته، وليظهر أثر نعمة الله عليه، فهذا يوم إظهار النعم، ثم لا تزمت ولا حرمان اليوم من اللعب واللهو البريء المباح، يروي أصحاب السنن عن أنس -رضي الله عنه- قال: قدم النبي ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟، قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال: قد أبدلكم الله بهما خيرا منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر»[2].

ويروي مسلم عن عائشة -رضي الله عنها-قالت: دخل علي النبي ﷺ في يوم عيد، وعندي جاريتان تغنيان، فلم يقل شيئا، ولكنه اضطجع على الفراش وحول وجهه، ثم دخل أبو بكر فانتهرني، وقال: أبمزمار الشيطان في بيت رسول الله؟ فقال ﷺ: « دعهما يا أبا بكر، إن لكل قوم عيدا، وهذا عيدنا)، قالت عائشة: وكان السودان

(١) سورة الحاقة: ٢٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه- كتاب الصلاة- باب صلاة العيدين (٢/٣٤٥/ح١١٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

يلعبون بالدرق والحراب، فإما سألت النبي وإما قال هو لي: (تشتهين تنظرين؟) قلت: نعم، فأقامني وراءه ورأسي على منكبيه، وخدي على خده، حتى إذا مللت قال: (حسبك؟)، قلت: نعم»[1].

ولا يفوتني أن أقول في صدد هذا اللون من اللعب المشار إليه في حديث عائشة: أنه ليس لهوًا سائغًا مرخصًا فيه فحسب، بل إنه متى صلحت فيه النية كان عملًا يندب إليه الإسلام، ويحض عليه كما يحض على الرماية والسباحة والعدو وركوب الخيل، وسائر ضروب الرياضة البدنية النافعة، فإنها تكسب صاحبها مضاء في العزيمة، ومناعة في البدن، وتجعل منه جنديًا معدًا لحماية الدين والوطن، فما أحرانا بأن نحيي هذه السنن الكريمة في أعيادنا!

هكذا تلتقي في الأعياد الإسلامية روحيتها المنطلقة السامية، وماديتها النافعة الجميلة الطاهرة البريئة، على أن الإسلام لم يكتف في أعياده بهذين العنصرين حتى عززهما بثالث هو آكد الجميع عنده وأحبه إليه، ذلك هو المعنى الاجتماعي الإنساني الذي جعل به الأمة جسدًا واحدًا، لا بوحدة شعارها وشعورها فحسب، ولا بمظهر اجتماعها الباهر في شعائر الذكر والصلاة وكفى، ولا بهذا التلاقي الأليف الودود، والباش الباسم الذي ندب إليه كل مسلم يلاقي أخاه في يوم العيد، ولكن بمعنى أقوى من ذلك كله: بنظام المشاركة المالية الفعلية التي شرعها في ذلك اليوم بين أعضاء الجماعة؛ ترفيها عن المعوزين منهم، وإغناء لهم عن ذل السؤال يومئذ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه -أبواب العيدين- باب الحراب والدرق يوم العيد (٢/١٦/ح ٩٤٩،٩٥٠).

تلك هي شريعة الزكاة في عيد الفطر، وشريعة الضحية في عيد النحر: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾(١)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾(٢).

أما بعد: فقد ناديت بوجوب تنظيم هذه المبرة الإسلامية التي كثيرًا ما يحرم آثارها مستحقوها، وكثيرا ما يتكرر بذلها إلى غير مستحقيها، لقد ناشدت حكومات الإسلام ومؤسساته الاجتماعية أن تتولى بنفسها جمع هذه الملايين المبعثرة، وتوزيع ما ينبغي توزيعه منها على من يستحق، ثم وضع ما يفضل من حصيلتها في صندوق تدعم به المشروعات الاجتماعية الكبرى، ولقد ناشدت أولي الأمر أن يقوموا في أيام الأعياد على الأخص بحملة تطهير تخلى بها الطرقات العامة وأبواب المساجد وأبواب البيوت من تلك الأيدي الممدودة للسؤال، تلك الوصمة التي تشوه جمال العيد وتتحدى النظام المثالي الذي وضعه الإسلام الهادي من هذه المأساة، لقد ناشدت من قبل وناديت، واليوم أكرر هذا النداء، وأجدد هذه الذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين.

---

(١) سورة الكوثر: ٢.

(٢) سورة الأعلى: ١٤– ١٥.

الحج ووحدة الشعوب الإسلامية

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم جعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ويتناصروا، وبطونًا وفصائل ليتآلفوا ويتظاهروا، وأفضل صلوات ربي وأجل تسليماته على خاتم النبيين والمرسلين، ومن بعثه الله رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: هل أنت قريب عهد بالاطلاع على خريطة العالم الإسلامي، وعلى موقعها من الخريطة الجامعة؟ إن لم تكن قريب العهد بها فإننا نعيدها إلى ذاكرتك، ونقرب لوحتها إلى خيالك، حتى كأنك تراها رأي العين.

جاوز ببصرك منطقة الثلوج المتجمدة في شمالي القارات الثلاث، وجاوز ببصرك من الناحية الأخرى منطقة الثلوج المتجمدة في جنوبيها، وتخط كذلك المناطق المتاخمة لهاتين المنطقتين، أو القريبة منهما، فإذا جاوزت هذين الطرفين في أعلى الخريطة الجامعة وأسفلها فأقبل على الرقعة المتوسطة بينهما، مبتدئًا من أقصاها في المغرب على شاطئ المحيط الأطلسي متجهًا نحو المشرق، وانظر ما ترى؟

إنك سترى رقعة فسيحة الأرجاء متلاحمة الأجزاء تصطبغ بلون واحد، وترتسم أمامك في صورة طريفة تستوقف النظر وتستأثر بالانتباه، إنها صورة جمل ضخم قد برك على الأرض بمؤخرته، ولكنه أخذ يهم بالنهوض فنصب ساقيه الأماميتين، ورفع رأسه، ومد عنقه، وقد سحب إلى الأمام من مشفره بحبل، وتدلى من عنقه

حبل ثان، واجتذب إلى الوراء من منكبه بحبل ثالث، كأنه المقود في يد الراكب، أما مبرك الجمل فهو الجزء الأعظم من القارة الأفريقية، أعني كتلتها العظمى المحصورة بين المحيط والبحر الأبيض والبحر الأحمر، وأما ساقاه الأماميتان فهما الصومال وأوغندة، وأما صدره فهو جزيرة العرب وما يليها من الشمال، وأما عنقه ورأسه الممتدان في قلب القارة الآسيوية فهي بلاد إيران وأفغانستان وباكستان وما فوقهن، وأما الحبلان الممدودان من مشفره ومن عنقه فهما سلسلتان من الأقاليم الآسيوية تمتد إحداهما إلى أقصى الشرق على المحيط الهادي أمام الجزر اليابانية، وتمتد الأخرى إلى الجنوب حتى تعبر القارة الآسيوية عند ملتقى المحيطين الهادي والهندي وهناك تؤلف مجموعة الجزر الإندونيسية، وأما المقود الذي يجذبه من منكبه إلى الوراء فهو سلسلة من الأقاليم الأوروبية تبتدئ من الأقطار التركية، وتسير في اتجاه شمالي غربي حتى تصل إلى قرب بحر البلطيق.

دع عنك الآن هذه التفصيلات الجزئية وألق على الخريطة نظرة عامة جامعة، أرأيت الكتلة العظيمة المعترضة في صلبها من الغرب إلى الشرق، وسطًا في موقعها بين الشمال والجنوب، وسطًا في جوها -غالبًا- بين البرد القارس والحر اللافح؟

في هذه الرقعة الوسط، وفي هذا الجو الوسط، تستوطن الشعوب الإسلامية التي جعلها الله أمة وسطًا، وسطًا في عقيدتها متجافية عن طرفي الخرافة والجحود، وسطًا في شريعتها نائية عن طرفي الواقعية الجامدة القلب والمثالية الذاهلة العقل،

وسطًا في مطامحها بعيدة عن طرفي القناعة الذليلة والحرص الجشع، وسطًا في موقعها بين المعسكرات المتنافرة المتناحرة، وسيط سلام بينهما، وداعية أمن وطمأنينة للإنسانية كلها

هذه الأمة كما جعل الله لها من وضعها الجغرافي وحدة طبيعية جامعة جعل لها من عقيدتها وشريعتها وحدة روحية جامعة، وحدتين لو أثمرت كل منهما ثمرتها في مجالها لكان من شأنهما تحقيق السعادة الكاملة للمجتمع الإسلامي، كان من شأن الوحدة الجغرافية أن تمحو من بين أقطار الإسلام تلك الحواجز الإقليمية في شئون الاقتصاد والإنتاج، وأن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعة ينشر فيها الرغد والرخاء، ويحقق لها الاكتفاء الذاتي والاستغناء عما سواها، وكان من شأن الوحدة الروحية أن تتغلب على تلك الفوارق والسطحية بين شعوب الإسلام في ألسنتها وألوانها، وفي مذاهبها وعاداتها، وأن توحد أو تجانس بين مناهجها التثقيفية ومبادئها التشريعية، وأن توجه رءوسها المفكرة إلى تبادل نتاجها العلمي والأدبي، ورءوسها المدبرة إلى تنسيق خططها السياسية والاجتماعية، وأن توجه جيوشها إلى التكتل في الدفاع عن كل شبر من أرضها، فكلما اشتكي من جسم الإسلام عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحماية والرعاية.

نعم، لقد كان من شأن هذه الوحدة المزدوجة أن تجعل الأمم الإسلامية من أرغد الأمم عيشة، وأعظمها قوة، وأتمها عزة،، فيا ليت شعري، ما الذي قعد بها عن

بلوغ هذه الغاية العليا بعد أن وضعت المقادير في يدها مفاتيحها المادية، وبعد أن وضع الإسلام في يدها مفاتيحها الروحية؟

لقد كاد المجال يكون فسيحا في الجواب عن هذا السؤال، وفي التماس العذر للمسلمين عن هذا القعود لو كان الإسلام اكتفى بتقرير هذه الحقائق والمبادئ، إذ كان لهم أن يعتذروا بأنها حقائق نظرية لا يدركها إلا الأفذاذ الذين تتسع آفاقهم، حتى يستوعبوا خريطة العالم الإسلامي في نظرة، ويستوعبوا عقيدة الإسلام وشريعته في فكرة، ثم كان لهم أن يعتذروا بأن إقامة هذه الوحدة عبء جسيم لا يسعى إلى حمله طائعًا مختارًا من بين هؤلاء الأفذاذ إلا عبقري يؤمن في قرارة نفسه بأن له رسالة إصلاحية في هذا العالم، أما الجماهير والدهماء فإنهم لا يمتد نظر أحدهم إلى أبعد من قطره أو إقليمه، بل ربما لا يتجاوز خياله حدود قريته، أو نطاق حرفته.

فالرجل الذي لم ير في حياته هنديًا ولا صينيًا، ولم يعرف روسيًا ولا تركيًا، ولم يعامل صوماليًّا ولا سنغاليًا، كيف نطالبه بأن يفكر في كل هؤلاء وأمثالهم، وأن يهتم بشئونهم وشئون أقوامهم؟

ألا فقد أبطل الإسلام هذه الحجة، وأغلق الباب أمام هذا الاعتذار، إذ لم يكتف بتقرير هذه الحقائق النظرية، ولكنه وضع إلى جانبها نظاما دقيقًا إلزاميًّا، وهيأ لتحقيقها فرصة عملية سنوية يجمع بها العالم الإسلامي مركزًا في بقعة، أتدري ما

هذه البقعة؟ إنها المحور الذي تلتف حوله أقطار الإسلام على بعد متناسب من كل جانب، إنها القطب المغناطيسي الروحي الذي تنجذب إليه أفئدة المؤمنين من كل فج عميق، إنها الكعبة (البيت الحرام)، ومكة (البلد الحرام)، ومنى (معسكر الحرم)، وعرفة (عتبة باب الحرم).

ذلكم هو مهد الإسلام في طفولته، ومبعث نشاطه في فتوته، جعل الله الورود إلى هذا المنهل الأول فريضة حتمًا على كل مسلم يستطيع إليه سبيلًا، ولو مرة في حياته، فليس لأحد منهم إذن أن ينطوي على نفسه في قطره وإقليمه، وأن يقول: إني لم أر في حياتي مشرقيًّا ولا مغربيًا، إنه يجب علينا دينا أن يرحل ليرى ويسمع، وليندمج في هذه الكتلة الإسلامية الكبرى، بل إننا لو فرضنا أن كل فرد أدى هذه الرحلة المفروضة، فإنه لا يباح لجماعة المسلمين أن يقطعوا هذه الشعيرة الموسمية، ولا مناص من أن تتجمع الوفود الإسلامية هنالك في كل عام في وقت واحد في صعيد واحد، بل في زي واحد، وأن ينشدوا جميعًا نشيدًا روحيًا واحدًا، تردد معهم الجبال والأكمات، فتتجاوب أصداؤه في قلوبهم، وتنصهر نفوسهم حتى تعود سبيكة واحدة في بوتقة الشعور المشترك، والوجدان الموحد.

تلك هي تجربة الوحدة الروحية، تكملها وتتوجها تجربة الوحدة الاجتماعية، ذلك أن الإسلام لم يجعل الحج عبادة وحسب، ولكنه جعله في الوقت نفسه قيامًا للناس وموسمًا لتبادل مصالحهم في مختلف وجوهها وأنواعها، بل إنه لأمر ما جعل هذه

قبل تلك في معرض بيانه للغاية المنشودة من رحلة الحج، ألا نسمع إلى قول الله جلت حكمته: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾[1].

إنه تطبيقًا لهذا المبدأ الحكيم كان من واجبات الحج بعد أداء مراسمه أن يخلع الناس ثياب عبادتهم المتقشفة، وأن يمكثوا هنالك فترة يعودون فيها إلى مجرى حياتهم العادية، متكشفًا كل منهم عن زيه ومهنته، وجنسه ولهجته؛ ليتعاملوا ويتشاوروا ويتعاونوا، وهم في أوضاعهم الطبيعية، حتى تبرز بينهم صورة هذه الرحلة الإسلامية المختلفة المظهر، المؤتلفة الجوهر.

هل فقه الناس إذن مغزى هذه الشريعة؟ وهل أدركوا أن تكرار هذه التجربة كل عام في شكل مصغر إنما هو دعوة إلى تجربة أمثالها كل آن في نطاق أوسع، وعلى مقياس حقيقي مكبر؟ فقهنا الله في أسرار شريعته، وأدبنا بآدابها، آمين.

---

(١) سورة الحج: ٢٨.

الجوانب الاجتماعية في الحج

الحمد لله رب العالمين، مالك يوم الدين، الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، والصلاة والسلام على إمام المتقين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا ومولانا محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

وبعد: ظاهرة عجيبة من ظواهر التشريع الإسلامي، تلك هي الطبيعة الثنائية المادية الروحية والإنسانية الربانية والفردية الاجتماعية التي تسري باطراد في شعائر الإسلام، حتى أرى كل قاعدة من قواعدها الأربع تمثل قطبًا ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربه، وطرف يربطه بإخوانه المؤمنين، ظاهرة مطردة كلما ازددنا في دراستها إمعانًا زادتنا إيمانًا بأن الذي فصل هذه الشريعة على مقياس الإنسان هو الذي فطر الإنسان روحًا في مادة، وفردًا في جماعة، هذه الطبيعة الثنائية قد تكون جلية واضحة في بعض الشعائر، دقيقة عميقة في البعض الآخر، ولكنها في شعيرة الحج أوضح وأجلى منها في سائر المواطن.

ولا نريد أن نطيل في وصف الجانب الروحي من هذه المأدبة الكبرى التي أعدها الله للمؤمنين عند أول بيت وضعه للناس، فذلك الجانب الروحي منها هو مثار الانبعاثة الأولى في قلب كل مؤمن يريد أن يلبي هذه الدعوة، ألا تراه حين يتفرغ لها من مشاغله وشواغله، ويفارق من أجلها أهله ووطنه، مضحيًا بماله ووقته وراحته، متجردًا حتى من ثيابه وزينته، محتملًا في هذه السبيل كل وصب ونصب، إنه يرى في ذلك كله مرضاة لربه، ومطهرة لذنبه، وبرهانًا على الإيمان، وزادًا من التقوى،

حتى إذا بلغ غاية سفره فأطل على الحرم الأمين، ثم وطئت قدماه مهبط الوحي الأول، أحس هنالك بشعور عميق من السكينة والطمأنينة، ثم أحس برباط وثيق من القرابة والنسب، ينتظم به في أسرة النبيين والصالحين الذين رفعوا هذا البنيان منارة وهدى للناس، أو الذين اجتذبهم إليه نوره وهداه، حتى إذا قضى مناسكه، وأتم شعائره شعر كأنه خلق خلقًا جديدًا، وعاد بريئًا طهورًا كيوم ولدته أمه.

فذلك الدافع القوي الذي يحرك راكد الهمم إلى الرحلة والهجرة، ثم ذلك الأنس الباطن الذي توحي به أرض الحرم بما فيها من مشاهد الحاضر وذكريات الماضي، ثم هذه البهجة والغبطة التي تملأ ضمير المؤمن عند شعوره بأداء الواجب، كل أولئك يستمد من معدن واحد، وينبع من ينبوع واحد، هو الجانب الروحي الذي يلمسه كل حاج ومعتمر حتى لو فرض أنه يسافر وحده، ويقيم وحده، ويشهد المشاهد وحده.

غير أن هناك بونًا شاسعًا بين فكرة العمرة وفكرة الحج؛ فلو أن امرأً أدى مناسك العمرة كلها منفردًا في أي وقت يحلو له من أوقات السنة دون أن يرى أحدًا، أو يشارك أحدًا في حل أو ارتحال لأدى شعيرتها، وفرغت ذمته منها، ومن هنا يتجلى ما في العمرة من طابع الروحية الفردية الذي تتسم به في الأعم والأغلب نوافل العبادات، أما شعيرة الحج فريضة كانت أو نافلة فقد حدد الإسلام لها أشهرًا معلومات، وعين لمناسكها أيامًا معدودات، بل جعل لبعضها ساعات محدودة من

تلك الأيام المعدودة، بحيث لو فاتت فلا قضاء لها، بل قد يجب العود لها من عام قابل.

هكذا يجب أن يجتمع الناس على هذه المناسك، في وقت واحد، وفي صعيد واحد، بل في زي واحد، ثم يجب أن تتكرر هذه الشعيرة في كل موسم، وأن تشهد أرض الحرم وما حولها هذه الوفود الإسلامية، مجتمعة في ميقاتها من كل عام.

هذا العنصر الجمعي هو إذن ركن ركين، وعنصر أساسي أصيل، من دونه لا يكون الحج حجًّا، ولا يقع فرضًا ولا نفلًا، ولقد حرص الإسلام على هذا التجمع في الحج حرصًا يفوق كل حرص، وجعله هو الحلقة الختامية العليا كل عام يتوج بها سلسلة التجمعات المحلية التي دعا المسلمين إليها في مختلف المناسبات، دعا أهل المحلة أو الحي الصغير إلى التجمع في أقرب المساجد خمس مرات كل يوم، ثم دعا أهل القرية أو الحي الكبير من المدينة إلى التجمع في مسجدهم الجامع مرة في كل جمعة، ثم دعا أهل المدينة وضواحيها إلى التجمع في فضائها أو في أوسع مكان منها كل عام مرتين لصلاة العيدين، مراحل متصاعدة تنمو فيها روح الجماعة شيئًا فشيئًا، ويتضخم مظهرها رويدًا رويدًا، حتى تصل إلى هذا التجمع الإسلامي الكبير مرة في كل عام، حول أول بيت وضع للناس، ما سر تلك العناية البليغة بهذا التجمع الموسمي الأكبر؟

لقد كان مقدرًا للإسلام أن ينتشر نوره في الآفاق على مختلف الأقطار والأقاليم، ولقد رأيناه بالفعل يبسط جناحيه على الأرض يمينًا وشمالًا حتى أتى على نهايتها في أقصى الشرق وفي أقصى الغرب، ثم رأيناه في الاتجاه الرأسي يمد قطبيه ما شاء الله أن يمدهما في الشمال وفي الجنوب، ولئن كان قد توقف سيره بعض الشيء في هذا الامتداد الرأسي لقد كان ذلك العارض وقتيًّا، إذ وضعت أمامه عقبات وحواجز صناعية لو رفعت من طريقه لأصبح ينتظم المعمورة من جميع أقطارها، ذلك أن الإسلام فكرة سائغة، وشريعة عادلة، ونظام جميل مثله كمثل الماء العذب المنهمر، لا يصادف أرضة مطمئنة إلا غمرها وعمرها، أيًّا كان جوها، وأيًّا كانت تربتها، وهكذا انفتحت لدعوة الإسلام عقول الأمم وقلوبها، على تنائي أقطارها واختلاف ألسنتها وألوانها وأنظمتها وعوائدها وموروثاتها.

فلو أن الإسلام رخص لكل أمة قبلت دعوته في أن تبقى حيث هي محصورة في نطاق حدودها لا تدري ما يجري وراء تلك الحدود من أنظمة وآراء، أو أنها تسمع بها ولا تراها، فتصدق ما يصل إليها من أخبارها -إن صدقًا وإن كذبًا- لو أن الإسلام رخص بذلك لأفسح إذن الطريق أمام العقائد والعوائد المحلية القديمة وسائر المقومات الاجتماعية الخاصة بكل قطر، ولتركها تربو وتنمو، وتتبلور وتتجمد حتى تكون عقيدة إلى جانب العقيدة، بل عقيدة في قلب العقيدة، وإذن

لأصبحت الوحدة الإسلامية وحدة إسمية نظرية، ولعادت شعوب الإسلام جماعات متنافرة متناثرة، لا قدر الله.

كان من الضروري إذن لبقاء هذه الوحدة ودوامها بصورة عملية أن يفرض على الشعوب الإسلامية نظام من الاختلاط والامتزاج والتجاور والتزاور من شأنه أن يحد من حدة التفاوت بينها، وأن يميل بمقوماتها الاجتماعية إلى التماثل والتشابه، أو على الأقل إلى التقارب والتناسق، إذ يكون هذا الاختلاط فرصة ممهدة لاقتباس ما هو حسن جميل، وتهذيب ما هو شاذ متطرف، ويكون في الوقت نفسه تدريبًا عمليًا على التسامح والإغضاء عن الفوارق الشكلية التي لا يخشى أن تحدث صنعًا في كيان الجماعة العظمى.

ماذا عسى أن يكون هذا النظام؟ نفرض على كل قطر أن يوفد طائفة منه تجوب الأقطار كلها بين حين وآخر؛ للوقوف على سير عقائدها وعوائدها وعلومها وآدابها وأسلوب عبادتها ومعاملاتها، وللسهر الدائب على التنسيق بينها، وصيانتها من أن يكون الاختلاف فيها اختلاف تناكر وتنافر.

يا لها من ضريبة قاسية، ومهمة شاقة عسيرة! أليس من الخير واليسر أن تجيء الوفود كلها إلى بلد واحد؟! أو ليس من خير الخير وأيسر اليسر أن يكون هذا البلد في سرة الأرض على بعد متناسب من كل أقطارها، وأن يكون هذا البلد هو البلد الآمن الذي يلجأ إليه المكروبون ويأمن فيه الخائفون؟! وأن يكون هذا البلد هو

البلد المحروم من ثمرات الأرض الأحق بالبر والرفد؟ وهو البلد الذي للإسلام فيه رحم تتقاضانا برها وصلتها منذ أقدم العصور، منذ قال إبراهيم -عليه السلام- ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (١).

أو ليس من تمام الحكمة أن يكون هذا البلد هو المكان الذي نزل فيه القرآن، والذي يتخاطب فيه الناس بلغة القرآن، ليكون فيه لغير العرب ألفة ما بلغها العرب، التي ينبغي أن تكون من عناصر العالمية الإسلامية؟ وأخيرًا أليس الخير كله في أن يكون هذا البلد هو البلد الذي فيه قبلة المسلمين ومشاعر عبادتهم؛ مطافهم ومسعاهم، وموقفهم ومرماهم؟

هكذا اختار الله للمسلمين أن يكون مجتمعهم السنوي في مكان يوفون فيه حق دينهم ودنياهم معًا، كما قال -جلت حكمته-: ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ (٢).

"لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ"، ما أعجب هذه الكلمة! ما أوجزها! وما أجمعها! إنها لتتناول شئون الاقتصاد والسياسة والحرب والقانون والعرف واللغة والآداب والعلوم،

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٧.

(٢) سورة الحج: ٢٧ – ٢٨.

وسائر مقومات الحياة الجماعية التي تتأثر أعظم التأثر بهذا الاتصال والتلاقي، كما تتأثر السوائل بتلاقيها في الأواني المستطرقة، فتأخذ في التوازن والتعادل طلبًا للوصول إلى مستوى واحد.

ولكن هل يظل المسلمون في مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبي الذي لا يعمل فيه إلا العقل الباطن البطيء الفاتر؟ أليس يجب أن يتقدموا خطوة إيجابية توضع فيها الخطط المفصلة لهذه الوحدة الإسلامية الشاملة، بلى لقد آن للأمم الإسلامية أن تخرج من سجن هذه الفرديات المنعزلة والقوميات المنفصلة إلى محيط الجماعة الكبرى التي يرون منها نموذجًا مصغرًا في هذه الرحلة المقدسة.

يوم عرفة

الحمد لله رضا نفسه، ولا إله إلا الله مداد كلماته، وسبحان الله وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه، والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، وعلى آله وأصحابه، وبعد:

في شرق مكة على يسار الطريق الذاهب إلى الطائف، وفي الحدود بين الحل والحرام ينفرج واد عظيم يحيط به قوس جبلي كبير، يكاد يكون ملتحمًا من جهات ثلاث: الشمال، والشرق، والغرب، ولكنه مفتوح فتحة كاملة من الجنوب، وعلى ذلك الطريق الذي يمثل وتر القوس وعلى امتداد سفح الجبل تجري عين زبيدة متابعة للقوس في تعريجاتها، هذا الوادي العظيم هو وادي عرفة، وهذه القوس الكبيرة التي تحتضن الوادي بذراعيها هو جبل عرفة، جبل شرفه الله وشرف واديه؛ إذ جعلهما مثابة ومجتمعًا لحجاج بيته، في وقت معلوم من كل عام، ذلك هو اليوم التاسع من ذي الحجة وليلة العاشر منه.

مثل هذا المكان المبارك -ولشعائر الله المثل الأعلى- مثل قاعة الانتظار التي تسجل فيها أسماء الزائرين قبل الحظوة بالاستقبال في الحجرة الخاصة الكريمة، هكذا قبل أن يطوف الحجيج بالكعبة المكرمة الطواف المفروض الذي لا يعتد به ركن من أركان الحج إلا في اليوم العاشر أو فيما بعده، يجب أن يكونوا قد سجلوا حضورهم قبل ذلك في مدخل الحرم، أعني قبل حدود الحرم على جبل عرفات، أو في الوادي الذي يحتضنه ذلك الجبل في اليوم التاسع، أو في عشيته أو فيهما معًا.

ذلك هو يوم عرفة، الذي قال فيه الرسول -صلوات الله عليه وسلامه-: « الحج عرفة[1]، فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج، ومن فاتته عرفة فقد فاته الحج من عامه، ذلك هو يوم عرفة الذي سماه الله: يوم الحج الأكبر» في تفسير طائفة من الصحابة، أو هو أحد أيام الحج الأكبر في تفسير طائفة أخرى، ذلك هو يوم عرفة الذي سجل فيه تاريخ الإسلام ذكرى من أعظم الذكريات، وبشرى من أحب البشريات: فلقد كان أعداء المسلمين يحاولون بكل الوسائل أن يطفئوا نوره، وأن يقتلوه في مهده، وما زال الصراع بينه وبينهم عشرين عامًا أو يزيد، حتى انتصر الانتصار النهائي باستتباب الأمر له في جزيرة العرب، وبتطهير الحرم وما حوله من رجس الوثنية وأنصارها في السنة العاشرة من الهجرة، فلما كان يوم عرفة من حجة الوداع في ذلك العام نزل القرآن، لا ليسجل هذا الحادث التاريخي الحاسم فحسب، ولكن ليعلن كذلك أنه حادث ما بعده حادث، وأنه لا خوف على الإسلام بعد اليوم من أعدائه: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾.

ولقد كان دستور الشريعة يتنزل فصولا ومواد متفرقة ونجومًا متقاربة أو متباعدة، وكان يخشى أن تختم حياة الرسول قبل أن تتم مواد هذا الدستور، فلما كان يوم عرفة من حجة الوداع أعلنت الآية نفسها أن أمر الشريعة قد أحكم وأبرم، وأن هذا

(١) أخرجه النسائي في سننه- كتاب الحج- باب فرض الوقوف بعرفة(٥/٢٥٦/ح٣٠١٦) من حديث عبد الرحمن بن يعمر.

هو مسك الختام، وأنه لن ينزل بعد ذلك التشريع شرع جديد بتحريم حلال أو تحليل حرام، إعلان فذ في تاريخ التشريع السماوي، فقد كان كل رسول ينبئ أمته أنه سيأتيهم بعده من يكمل لهم البنيان، حتى جاء محمد خاتم النبيين ﷺ، فلما بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، أعلنها الله على لسانه في ذلك اليوم، شريعة تامة كاملة خاتمة دائمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾[1].

ذلك هو يوم عرفة، الذي قالت اليهود في شأنه لعمر: إنكم تقرون في كتابكم آية لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، فقال عمر: وما تلك الآية؟ قالوا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾، قال عمر: والله إني لأعلم في أي يوم أنزلت، وفي أي ساعة أنزلت، وأين أنزلت، وأين كان رسول الله ﷺ حين أنزلت: أنزلت ورسول الله ﷺ قائم فينا يخطب ونحن وقوف، وذلك عشية يوم الجمعة، ألا وإنهما لنا عيدان[2]، صدق عمر فيوم الجمعة للمسلمين عيد أسبوعي، ويوم عرفة لهم عيد سنوي يتلوه عيد سنوي.

ذلك يوم عرفة في تاريخه المجيد، وما يوم عرفة في حاضره القريب بأهون منه شأنًا في ماضيه البعيد، إن قدره على الزمان يتجدد، وإن فضله في كل عام يعود ويتردد، إنه في موسم الحج ليوم مشهود، بل هو أعظم وأفخم مشاهده، أوسعها رقعة،

---

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب الإيمان- باب زيادة الإيمان ونقصانه(١/١٨/ح٤٥).

وأحفلها جمعًا، وأخلبها منظرًا، وأعمقها أثرًا، فلو أن أبصارنا وأسماعنا تتخطى هنا الأفق، وتنفذ من وراء الحجب لترى وتسمع ما يدور اليوم في تلك البقعة المطهرة، لرأينا وسمعنا ما لا ترى عين ولا تسمع أذن في غير هذا المكان المشهود.

ما تلك الجزيرة البيضاء التي تسد الأفق وتغطي السهل والجبل؟ إنها كتلة ذوي القلوب المؤمنة يلوحون في ثيابهم البيض كأنها أجنحة الملائكة، وقد تضاموا وتلاصقوا حاسري الرءوس، حفاة الأقدام أو يكادون، باسطي أيديهم إلى السماء، رافعي أصواتهم بالتلبية أو الدعاء، متقطعة أنفاسهم بدقات الخوف أو بخفقات الرجاء! يا له من موقف: ﴿نَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (١)، يا لها من لحظات بعيدة الغور في النفوس، بعيدة الأثر في الحياة! إنها لحظات التجرد، تجرد عن المال والأهل والولد، بل تجرد كل امرئ عن نفسه، ونسيانه لطامحه ومطامعه، فرارًا إلى الله، وإقبالًا على الله.

يا ليت شعري! هل يسمع الداعي هنالك نفسه؟ أو هل يسمع من حوله؟ لعله لا يسمع شيئًا من ذلك إلا في فترات عابرات، فإذا رجع إليه صدى صوته، أو صدى تلك الأصوات المختلطة من هذه الجموع الحاشدة، ازدادت روحانيته انفعالًا واشتعالًا، ثم ارتد أثر هذه الحمية إلى الجماعة، وهكذا دواليك متوالية هندسية، وربح مركب يتضاعف على توالي الآنات واللحظات، يا لها من نقطة تحول في

(١) سورة الزمر: ٢٣.

طبيعة الإنسان، هذا الإنسان المادي الروحي، تنصهر ماديته ها هنا انصهارًا، وتذوب ذوبة، فإذا هو قد عاد ربانية خالصة وروحًا محضة، أولئك هم ملائكة الأرض، يباهي الله بهم ملائكة السماء، طوبى لهم، طوبى لهم، يا ليتنا كنا معهم!

أي وفد الرحمن!

إن أجسامنا ها هنا موثقة، ولكن قلوبنا بكم ملصقة، تسير معكم حيثما سرتم، وتنزل معكم حيثما نزلتم، ولئن فاتنا السير في ركابكم إنه لن يفوتنا إن شاء الله اقتفاء آثاركم: إنكم تدعون وتضرعون في عرفات، فلندع نحن ولنضرع في الفلوات والخلوات، إنكم ستكبرون عند الجمرات، فلنكبر نحن في أعقاب الصلوات، إنكم ستذكرون اسم الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام لتأكلوا منها وتطعموا البائس الفقير، فلنذكر كذلك اسم الله على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، لنأكل منها ونطعم البائس الفقير، وأخيرًا، فإننا نرجو أن يكتب لنا أجر حجتكم، وأن ينالنا شيء من دعائكم. أي وفد الرحمن!

اذكرونا مثل ذكرانا لكم *** رب ذكرى قربت من نزحا

و سلام الله علينا وعليكم وعلى عباد الله الصالحين.

إلى روضة الرسول

الرائد:

هيا بنـا أيهـــا الرفـاق هيـا!

هيا إلى مشرق النور والهدى! هيـا إلى ساحة الجـــــود!

هيا إلى أرض الحبيــــب! هيا إلى روضة الرســـــول!

القافلة:

أيها الرائد فلتوسع من الخطا ولنسـر خلـف خطـاك!

أيهـــا الحــــادي، وزدنا من هيام واشتياق بحداك!

الرائد:

النفس ظمأى فما تـروى! والروح جوعى فما تغتذي؟

والأرض مدت فما تنطوي؟ والليـــل طال متى ينجلي؟

القافلة:

أيها الرائد فلتوسع من الخطا ولنسر خلـف خطـــاك!

أيهـــا الحـــادي، وزدنـــــا من هيام واشتيـاق بحـداك

الرائد:

يا ليت شعري! متى الملتقى؟ وبعدكم سيستقر النــوى!

فالركب أضناه طول السرى! والشوق أضراه بعد المدى!

القافلة:

مه يا حادي لقد برح الشـوق بنا! فما نطيق مزيدًا في الانتظار

الرائد:

لقـد هان يا نفـس ما تشتكـــي! ووافـاك يا قلـــب ما ترتجـــي
أما ترى طيبة؟ ها قد بدا نورهـــا وأرض الحمى قد بان مزارهـــا؟
أحقا سأدخل في رحاب الرسول؟ أحقًّا سأعطى جواز الدخـــول؟
أفي يقظـــة أنا أم في حلـــــم؟ وأنى لمثلي بهذا الحـــــــرم؟
أيها النفــــس لا تيئســــــي كـــلا ولا تبتئســـــــــــي!
دونـك باب الحمى فاعتصمي وجاءت الفرصة فلتغتنمـــــي!
هأنتــذي في جوار الرســـول هأنتذي في مقام المثـــــــول!
ألا فاجتلي مشهد الجلال الوقـور ألا وانهلي من شذا العبير الطهور!
يا لها لحظة تنطوي فيها دهـــور!

أيها الطهر المسجى في ثيابه! أيها النور المحجب في مشكاته! كم قدمت في حياتك من عمل! وكم خلفت وراءك من أثر! وكم لك في أعناقنا من منن! منن ليس فوقها إلا منة الله علينا، حين بعثك بشيرًا ونذيرًا، وسراجًا منيرًا، ها هنا رفعت للإسلام منارته، ها هنا رسمت للعالم دستوره وشريعته، من فوق هذا المنبر كم أقمت من حجة، وأوضحت من محجة! وكم استمعت إلى سائل! وكم حللت من مشاكل!

وفي هذا المحراب كم تلوت آيات من الوحي بينات خشعت لها النفوس، ووجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون.

وفي هذه الحجرات، كم أحييت ليلك! وكم أيقظت أهلك! وكم شددت مئزرك في طاعة الله! وكم كنت في هذه الحجرات بأسلوب عشرتك لأهلك وولدك المثل الأعلى للأزواج والآباء! وبين هذا المنبر وهذه الحجرات، كم التحمت صفوف المؤمنين من ورائك، وانتظموا تحت لوائك، وكم في هذه الروضة وردت إليك كتب، وصدرت عنك منها كتب! وكم استقبلت فيها من وفود! وكم عقدت فيها من ألوية! وكم وثقت فيها من عهود! وفي زوايا هذا المسجد، كم تكدست لديك من أموال الزكوات والصدقات فلم تلبث أن فرقتها بين مستحقيها حتى لم يبق منها في حوزتك دينار ولا درهم، ولم يصب أهلك منها حبة ولا شق تمرة! لقد صان الله عنها شرفك وكرامتك، إذ حرمها عليك وعلى قرابتك!

ومن حول هذا المسجد وفي خلال هذه المدينة كم حاولت شيع النفاق والكفر أن تحول الناس عنك وعن مسجدك! وكم حاكت حولك من دسيسة! وكم دبرت لك من مكيدة! حتى لقد بنى الخائنون مسجدًا ينافسون به مسجدك ضررًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، وكانت فتنة أطفأتها بما أراك الله من حكمة وأنزل عليك من سكينة، فلم تقر أعين المنافقين بالصلاة في وكرهم الذي أسسوا بنيانه على شفا جرف هار، ولزمت مسجدك هذا الذي أسسته على تقوى من الله ورضوان،

وهكذا بقي كما تراه راسخًا شامخًا على مر العصور والدهور: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١).

وحول هذه المدينة من قريب أو بعيد كم تألبت على دعوتك أحزاب! وكم تحالفت عليها أحلاف! وكان الأعداء في خارج المدينة قد اتخذوا من أعدائك في داخلها عينًا وعونًا وظهيرًا ونصيرًا، فأعلنوها عليك بجمعهم حربًا ضروسًا، حرب أعصاب وحرب صراخ وضراب، فصارعتهم في كل ميدان، وفللت جيوشهم في كل مكان، حتى إنه لما فروا عند الصدمة الأولى في موقعة من المواقع، تقدمت لجيوش الأعداء وحدك، وتحديت كتائبهم بعزمك، وكأنك كنت تصيح فيهم مقالة أخيك نوح -عليه السلام-: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾(٢)، أو مقالة أخيك هود -عليه السلام-: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾(٣).

ثم لما التف حولك من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه لم تفد نفسك بنفوسهم، ولكنك خضتها معهم كواحد منهم، فعرضت جسمك الشريف لطعانها، ووجهك الكريم لنبالها، وصرعت وجرحت وسالت دماؤك الزكية فما

(١) سورة الرعد: ١٧.

(٢) سورة يونس: ٧١.

(٣) سورة هود: ٥٥.

باليتها في سبيل الله، ولما سقط الشهداء صرعى من حولك لم تهن ولم تستكن لما أصابك فيهم، وما زلت تبذل جهدًا إثر جهد، وتقدم تضحية بعد تضحية، حتى كان نصر الله والفتح؛ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فلما من الله لك دينك الذي ارتضي لك، واستخلفك في الأرض كما استخلف النبيين من قبلك، وتركت لأمتك ما إن تمسكت به كان لها عز الدنيا وسعادة الآخرة، هنالك أوحى الله إليك أن قد بلغت رسالتك، وأديت أمانتك، ودعاك إلى لقائه راضيًا مرضيًّا، هاديًا مهديًا.

فسلام عليك رسول الله، سلام عليك أيها الصادق الأمين، سلام عليك أيها البر الرءوف الرحيم، سلام عليك أيها الحي السخي القوي العفيف الحليم، سلام عليك خير زوج وأكرمه، وأبر والد وأرحمه، سلام عليك أفصح مرب وأحكمه، وأسوس قائد وأحزمه، سلام عليك يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حيًّا.

وصايا القرآن الكريم

الحمد لله الذي جعل قوله القول الفصل والحكم العدل، والآية البادية والحجة الباقية، وصلى الله تعالى على من جاهد في الله حق الجهاد، وبذل جهده في الحرص على نجاة العباد، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد: كلمة وصايا القرآن في مقابلة وصايا التوراة ووصايا الإنجيل ربما تلقي في روع سامعيها أن الشرائع والإرشادات التي يحملها كل كتاب من هذه الكتب الثلاثة تخالف أختيها في الكتابين الآخرين، أو أنها إن اتفقت في تشريع ما فإنما تتفق عرضًا ومصادفة، وأن الذي يتحدث عن أحد هذه الكتب إنما يقوم على كل حال بدعوة طائفية محصورة، يتوجه بها إلى أهل ملته خاصة.

هذه هي الأخطاء التي أردت بادئ ذي بدء أن أمنع تسربها إلى الأفهام، وأن أضع في مكانها طائفة من الحقائق الصحيحة النافعة: أولى هذه الحقائق أن وصايا القرآن تنتظم وصايا التوراة ووصايا الإنجيل معًا، بل تنتظم تعاليم الأنبياء والحكماء جميعًا، والحقيقة الثانية: هي أن تعاليم الإنجيل بدورها تحمل في طيها تعاليم التوراة كافة، وينساق بنا تقرير هاتين الحقيقتين إلى تقرير الحقيقة الثالثة الكبرى، وهي أن الوحي السماوي كله لا انقسام فيه، وعروة لا انفصام لها.

لا تحسبوا أني سأحدثكم ها هنا عن وحدة الهدايات السماوية في إبان نشأتها حينما كانت لا تزال غضة طرية حديثة العهد بالنزول من السماء، فذلك أمر قد فرغ القرآن منه منذ قرر أن النبوة كلها ملة واحدة، وأعلن موقفه من الكتب السابقة،

فجعل دعوتها جزءًا من دعوته، وجعل الإيمان بها عنصرًا أساسيًّا من الإيمان به، ولكني سأحدثكم عن ظاهرة عجيبة يثبتها البحث المقارن بين الشرائع السماوية الثلاث في صورتها الحاضرة، ذلك أن طابع هذه الوحدة لا يزال بارزًا فيها إلى يومنا هذا، حتى بعد أن اختلفت نسخ التوراة وصور الإنجيل، وبعد أن امتدت إليهما يد الزمان بشيء من الزيادة والنقص، وشيء من التحريف وسوء التأويل؛ فهي على الرغم من ذلك كله لا يزال فيها جوهر سليم خالد، ولا يزال يبرز منها خط مستقيم واحد، يمتد على معبرة التاريخ من التوراة إلى الإنجيل إلى القرآن، حتى إن الباحث اليقظ حين يتأمل في أسلوب الانتقال بينها يكاد يلمس بيده خط السير الذي سلكه الوحي السماوي من بدايته إلى نهايته، أتدرون ماذا يجد الباحث؟

إنه يرى الوحي في كل مرحلة من مراحله، يبدأ بتثبيت الأقدام على المرحلة التي قبلها، ثم يمضي صاعدًا فيفتح أفقًا أعلى، ويضع مبادئ أسمى، فإذا جاءت المرحلة التي تليها تلفت كذلك إلى الوراء فأكد المرحلتين وثبتهما، ثم نظر إلى الأمام فصعد كرة أخرى، وهلم جرًّا.

لعلكم أدركتم الآن معنى قولنا: أن الأديان الثلاثة تتألف منها شريعة واحدة، هذه الوحدة كما ترون ليست وحدة القول المردد والحديث المعاد، ولكنها وحدة الطريق تتلاحق خطواته، وتتصاعد درجاته، أو وحدة البناء يبدأ بوضع أساسه، ثم لا يزال تتسع أركانه ويرفع بنيانه، حتى يصل إلى حد التمام، منهج من التربية والتهذيب

قوامه عنصران: عنصر الثبات والخلود، وعنصر التقدم والتجديد، ويتساند فيه مبدآن: مبدأ المحافظة على القديم الصالح، ومبدأ الإنشاء والابتكار لكل جديد نافع، قافلة من النور لم تعرف يومًا معنى الرجوع إلى الوراء لهدم شيء من صرحها التليد، أو محو جزء من ماضيها المجيد، كما أنها لم تركن يومًا إلى الجمود والركود بالتكرير والترديد المملول، ولكنها سارت إلى الأمام على الدوام، حتى بلغت مستقرها، وحتى نزل في ختامها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1].

ولسنا ننكر مع ذلك أنه على جوانب هذه الشجرة الباسقة الخالدة من التشريع السماوي قد نبتت تشريعات وقتية مرتبطة بأسباب عارضة زمنية أو مكانية، ثم لم تلبث أن زالت بزوال تلك الأسباب كما يحدث في كل تشريع حي في القديم والحديث، ولكن هذه الأعراض الجانبية لا يأبه لها الحكيم الذي ينظر إلى لب الأشياء وجوهرها، فإن مثل هذه التشريعات الوقتية مثل أوراق الربيع تزين أغصانها حينًا ما، ثم تذبل و تعصف بها ريح الخريف ليثبت بدلها في الربيع التالي ما هو أبهى وأجمل، والشجرة باقية على حالها ترسخ أصولها، وتمتد فروعها، وتتابع نموها غير مبالية بتبديل الأوراق على جوانبها، ذلك تأويل قوله سبحانه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) سورة البقرة: ١٠٦.

فالتشريع الموقوت متى استنفد أغراضه بُدِّل مما هو خير منه، والتشريع الصالح لأن ينسأ في أجله وأن يمد في عمره يعاد مثله في العهد الجديد إذا كان قد نسي في فترة من الفترات.

هذه شهادة من الآية الكريمة تسجل صحة نظريتنا في تطور التشريع السماوي بوجه عام تطورًا جامعًا لعنصريه الثبوتي والتقدمي، وإننا لنجد تأييدها بطريقة تفصيلية في نصوص كثيرة، فنحن نرى القرآن في تنويهه بشأن الإنجيل يجمع له بين هذين الوصفين: أنه مصدق لما بين يديه من التوراة، وهذا هو عنصر المحافظة على القديم الصالح، وأنه إلى ذلك هدى وموعظة للمتقين، وهذه إشارة إلى ما فيه من العنصر الإيجابي الجديد.

وكذلك نرى القرآن يجمع لنفسه هذين الوصفين: أنه مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، ومبين لما وقع فيه من الاختلاف، وأنه إلى ذلك هدى ورحمة للمؤمنين، وكذلك نرى محمدًا -صلوات الله عليه وسلم- لم يدع أنه جاء لينشئ قواعد الأخلاق، بل أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وقال: «مَثَلي ومثلُ الأنبياء منْ قَبلي، كَمَثَلِ رجلٍ بنى بَيْتًا، فأحْسَنَهُ وجَمَّلَه، إلا مَوْضعَ لَبِنَةٍ من زاوية، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفونَ بِهِ، ويَعْجَبونَ له، ويقُولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة؟! قال: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتمُ النَّبيِّينَ»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه- كتاب المناقب- باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم (٤/١٨٦/ح٣٥٣٤) من حديث جابر بن عبد الله.

وجملة القول: أن الذين سيدرسون معنا وصايا القرآن سوف يدرسون في الوقت نفسه وصايا التوراة، مزيدًا عليها وصايا الإنجيل، مزيدًا عليها ما شاء الله من وصايا الذكر الحكيم.

سلاحان جديدان في أيدي الأعداء

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على محمد النبي الأمي القرشي الهاشمي الذي أيده الله تعالى بالمعجزات الظاهرة، والجنود القاهرة، وجعله قائدًا للغر المحجلين، والوجوه الناضرة، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وأصحابه الأكرمين، وبعد:

لقد استطعنا أن نقول في غداة الغدرة الماضية: إنها كانت سليمة العاقبة، وإنها كانت فاشلة التجربة، فهل نستطيع أن نقول ذلك غدًا إذا تكررت التجربة؟ وبعبارة أخرى: هل نحن اليوم لا نزال كما كنا أول مرة؟

لنعد بذاكرتنا إلى ظروف التجربة الماضية وإلى مقدماتها، ألسنا قبل أن نصطدم بتلك الحملة العسكرية الغادرة كنا هدفًا لحملات اقتصادية عنيفة جبارة، استغلت فيها عزيمتنا على البناء، فاشترطت علينا فيها شروط قاسية جائرة، فماذا كان موقفنا؟ لقد رفضنا في عزة وإباء كل معونة مشروطة، إذ وجدنا في طيها عار الدهر وذل الأبد، فقلنا: تموت الحرة ولا تأكل بثدييها، وتجوع الأمة ولا ترضى بالدنيا كلها بديلًا عن حريتها، هكذا كان لنا خلق أبي اعتصمنا به أمام كل الوعود والمغريات.

فلما لم تذلنا الحاجة، ولم تنحن روسيا أمام الرغبة، أخذوا يعالجوننا بالعوامل المضادة، عوامل الخوف والرهبة، وجاءت القوة الباطشة في البر والبحر والجو تحمل إلينا نذر الخراب والموت، فماذا كان موقفنا؟ لقد رحبنا بالموت، فتحنا له

صدورنا، وفدينا مثلنا العليا بأموالنا وبأنفسنا، وكان شعارنا يومئذ: الموت في سبيل الله، والوطن خير من العيش في ظلال الذل والوهن، وهكذا كان لنا دين وإيمان اعتصمنا به أمام كل وعيد وتهديد.

واستيقظ القوم مبهوتين أمام هذا السياج المحكم من الإباء المصمم، ولكنهم لم تطل بهم الدهشة، فإنهم سرعان ما اكتشفوا سر هذه المناعة العجيبة، إذ وجدوا هذه الأمة تعتصم وراء صخرتين عاتيتين ارتطمت عليهما كل جهودهم ومحاولاتهم، وفشلت في تحطيمهما كل أسلحتهم وأموالهم: صخرة الخلق الإسلامي المتين والتراث العربي الأبي، وصخرة الدين والإيمان الذي يعمر القلوب، هنالك أيقنوا أن هذه الأمة ما دامت مستمسكة بأثارة من خلقها ودينها فلن تلين قناتها، ولن تسلم زمامها، وتبين لهم أن اليوم الذي يستطيعون فيه تفتيت هاتين الصخرتين هو اليوم الذي يستطيعون فيه اقتحام البناء بخيلهم ورجلهم واشتراء من فيه بذهبهم وورقهم! وتساءلوا بينهم: لماذا لا يجربون هذين السلاحين الجديدين؟ لماذا لا يصوبون معاولهم إلى تقويض الأساس بدلًا من أن يضيعوا وقتهم في تثليم البنيان؟ وهكذا -منذ وضعت المعركة أوزارها، ومنذ أخذت العزائم تميل إلى فترة تستجم فيها- جعلوا يغتنمون هذه الفرصة السانحة مضافة إلى فرصة أخرى؛ فرصة جهل الشباب بحقيقة دينه، وسهولة تقبله لكل ما يرضي ميوله وهواه، فطفقوا يجندون أقلاما مأجورة عرفوها، ونفوسًا مريضة التمسوها ووجدوها، للقيام بأكبر حملة

إلحادية إباحية، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى انتشرت في الجو كل أنواع الجراثيم الفتاكة بالعقائد والأخلاق، وإذا الألسنة والأقلام تحملها إلينا وتلاحقنا بها حيثما كنا، حتى أصبحت وباء عامًّا يجب أن تتعاون الأمة والدولة على تطهير الجو منه، قبل أن يمسي مرضًا متوطنًا يهد كياننا، ويقتل معنويتنا.

إنه لمن المفارقات العجيبة حقًّا أننا في الوقت الذي نريد فيه أن يكون كل فرد من الأمة جنديًّا يذود عن عرين الوطن يترك هذا الفرد فريسة لذلك الوباء يجعل منه هيكلا لا روح فيه، وآلة لا عزيمة لها، وإنه لمن المفارقات العجيبة حقًّا أننا في الوقت الذي نسعى ونجد فيه لتسليح أنفسنا نجرد أنفسنا من أقوى سلاح عرفته الأمم الحية، سلاح القوة المعنوية، والإيمان بالحقائق المقدسة!

هذه كلها حقائق ملموسة مجربة، وثمن الإغماض عنها معناه المساهمة في تسليح عدونا بسلاحين خطرين، لا يغني أمامهما أعظم سلاح، وأحدث سلاح، وأوفر سلاح، ولنفتح أعيننا، ولنعتبر بتجاربنا وتجارب الأمم قبلنا.

ثـمرة الجهاد

الحمد لله الذي استسلم كل شيء لقدرته، وخضع كل شيء لملكه وسطوته، والصلاة والسلام على من جاهد في الله حق الجهاد، وبذل جهده فعلم وهدى إلى طريق الرشاد، سيدنا محمد خير ناطق بالضاد، وعلى آله وأصحابه الكرام الأمجاد، وبعد: هل رأيت؟ هل سمعت؟ أرأيت كيف أصبح اسم مصر في كل قلب، وعلى كل قلم، وعلى كل لسان؟ أسمعت الصيحات المدوية التي صاحتها الأمم في وجه الباغي على مصر، حتى زلزلت منه الأقدام؟ وهل رأيت أو سمعت قبل اليوم قضية ملأت هكذا سمع العالم وبصره، وسخرت أقلامه ومحابره، وأثارت أفكاره ومشاعره؟ هل رأيت أو سمعت قبل اليوم قضية آزرها الأعداء والأولياء والمحايدون على السواء؟ ثم أرأيت كيف فتحت هذه القضية عهدًا جديدًا لجمعية الأمم فأخرجتها لأول مرة من نطاق الأقوال إلى ساحة الأفعال، ومن موقف النصيحة والتوصية إلى مقام الأمر والإلزام، ثم جهزتها لأول مرة دولية مسلحة تنفذ بها ما تصدره من أحكام؟

وهل أتاك نبأ الشعوب الشقيقة وغير الشقيقة، الصديقة وغير الصديقة، كيف قطعت عن المعتدي معونتها؟ وكيف حبست ينابيع رزقه في أرضها؟ ثم هل أتاك عنها نبأ الزحف المقدس، حيث تسابقت فيها الألوف إلى قوائم التبرع، واحتشدت فيها مئات الألوف حول مكاتب التطوع، منتظرين أول نداء من مصر ليكونوا إلى جانبها بسواعدهم وبأسلحتهم؟ بل هل أتاك نبأ الدول الحرة التي تربطها الروابط

بدول العدوان كيف أنذرت وهددت بالانشقاق على جماعتها إذا لم ترجع هذه عن عدوانها؟

وأخيرًا، هل أتاك نبأ الدول المعتدية نفسها، كيف غزاها اليأس والبؤس في عقر دارها؟ وكيف بدأ التصدع في كيانها: تفككًا في أحزابها، أو تمردًا من بعض أقاليمها؟ تُرى ما السر في هذا كله؟

ماذا صنعت أيها الشعب المصري المكافح لتثير هذه العاطفة العالمية وجه المعتدين؟

لا شك أنه نصر الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1].

ثم ماذا صنعت أيها الشعب البرئ المسامح، لتكتسب هذه العاطفة الإجماعية من قلوب العالمين؟

لا شك أنه صنيع الله، فإنك لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، غير أن الله إنما يكتب نصره لأمة لم تفرط في حقها، ولم تستسلم لعدوها، ولم تفقد ثقتها بنفسها، ولم تنس إيمانها بربها، وكذلك برهنت أمتنا على أنها كانت خليقة بنصر الله لها، إذ أثبتت أنها تملك من هذه الخصائص الغالية ما كان شجًّا في حلوق حسادها، وغيظًا في صدور أعدائها.

نعم لقد ظنوا وساء ما ظنوا، وقدروا وبئس ما قدروا، ظنوا أن هذا الشعب الوديع المسالم يمقت الحروب أشد من مقته لعبوديته، وأنه يحب العافية والسلامة أشد من حبه لحريته، وقدروا أن غارة واحدة أو بضع غارات تجعل هذا الشعب ينتفض

---

(١) سورة الأنفال: ١٧.

انتفاضة الهلع والجزع، ويرتعد رعدة الرعب والفزع، ثم لا يلبث أن يرفع بيديه راية السلام بل شارة التسليم والاستسلام.

ألا فقد خاب ظنهم، وكذب حسابهم، ورأوا الآن ما لم يكونوا يرون: رأوا أمة حمية أبية، تؤثر الموت في سبيل مثلها العليا، وتأبى الحياة إلا عزيزة كريمة، فاسأل الغادرين ماذا وجدوا أمامهم في أول ثغر؟ ألم يجدوا قوة بشرية جعلت صدورها لمن خلفها ترسًا، وجعلت أجسامها من دون أمتها سدًّا؟ فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا، ولو أنهم اطلعوا من وراء هذا الثغر إلى سائر مدن القطر لرأوا شعبًا ينبض قلبه نبضة واحدة، نبضة النجدة والحمية والشهامة والتضحية.

أفلم يروا إلى هذا الشباب من كل البيوت وكل الأسر؟ كيف هجروا طائعين مختارين فراشهم الوثير، ونظام عيشهم الأثير، واندفعوا من تلقاء أنفسهم فربضوا في العراء ليلًا ونهارًا، طعامهم القفار، وفراشهم الغبار، ولحافهم الزمهرير، ولكن أعينهم يقظة ساهرة، وأيديهم على السلاح قابضة غير خائرة، يستمعون إلى قصف القذائف من حولهم، وإلى أزيز الرصاص من فوقهم، كأنما يستمعون موسيقى الزفاف إلى الملأ الأعلى!

أو لم يروا إلى تلك الأفواج من الطلاب وغير الطلاب، وهم يتسابقون إلى حمل السلاح، ويتدفقون إلى معسكرات التدريب، فإذا قيل لهم: قد غصت الميادين رجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا أن فاتهم شرف الجندية في يومهم، واستبطاء للغد في انتظار دورهم، بل ألم يروا إلى الأمهات وربات البيوت وقد انخرط

أبناؤهن أو إخوتهن في سلك الجندية الشعبية، وشغلت بناتهن أو أخواتهن بخدمة الجرحى ومواساتهم؟ كيف ضاقت عليهن أنفسهن وجعلن يتحرقن شوقًا إلى القيام بعمل ما يؤدين به ضريبة الوطن التي في أعناقهن؟

هكذا سواء من كان في الصف ومن كان خلف الصف، كان الكل في طريق الجهاد، وكان الكل يؤثر الاستشهاد على الاستعباد، ونظر الله إليهم بعين رضوانه ورحمته، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وكف أيدي الناس عنهم، وأيدهم بنصره وبالمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾[1]، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾[2]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ [3]، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: ١١.

(٢) سورة هود: ٥٢.

(٣) سورة البقرة: ١٤٣.

(٤) سورة إبراهيم: ٧.

فترة لا فتور

الحمد لله مفرج الكروب وغافر الذنوب، الذي إذا دعي أجاب، وإذا عومل أثاب، والصلاة والسلام على من شرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وبعد: اليوم سكنت العاصفة بعد حدتها، وانفرجت الأزمة بعد شدتها،، فهل يكون ذلك إيذانًا بزوال كل الأخطار؟ وإذنًا بالتراخي فيما عقدنا من عزائمنا؟ كلا.

اليوم خضعت قوى البغي والعدوان، وبدأت تعد عدتها للرحيل راجعة القهقرى خائبة المسعى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾، بل جنوا على أنفسهم وعلى أمتهم، وعلى من جاورهم من الأمم شرًّا مستطيرًا، وشقاء طويلًا مريرًا، أضعاف ما جنوه علينا في هذه الأيام المعدودة، وفي تلك الرقعة المحدودة التي دنسوا بأقدامهم ظهرها، وخربوا بمدمراتهم عمرانها، وقتلوا نساءها وأطفالها، وسرقوا ونهبوا أموالها، سلسلة من المخازي تكللت بها نواصيهم، تتلوها سلاسل من المآسي يلاقونها إذا رجعوا إلى ديارهم وأهليهم.

فليرحلوا إذن إلى أوجارهم مأزورين غير مأجورين، رحيلًا إلى غير رجعة، وليوفروا على أنفسهم بعد اليوم عناء التجارب في هذا الوطن العربي الذي أصبح كتلة واحدة ليست فيه رقعة منعزلة عن رقعة، وأصبح أهله كلهم أيقاظًا حماة

للحمى، أباة للضيم، يألم أقصاهم لما يألم منه أدناهم، وتطير أخراهم لنجدة أولاهم.

نعم، ولكن من ذا الذي يأمن بعد هذه السابقة الخطيرة أن يعود الغادرون لمثلها هناك أو هنا؟ ومن ذا الذي يضمن إذا رفع الغادر إحدى قدميه من أرضنا ألا يضع قدمه الأخرى في أرض جار لنا، جار ذي قربي أو جار جنب؟ لقد علمنا القرآن أن الذين لا إيمان لهم، لا إيمان لهم، ولا أمان لهم، بدت البغضاء من أقوالهم وأفعالهم وما تخفي صدورهم أكبر، وما يبتغونه للعروبة والإسلام أدهى وأمر.

إننا اليوم نعيش ليلنا ونهارنا وعزمة المجد في نفوسنا ثائرة، وصورة البأس في أعيننا ماثلة، فهؤلاء إخواننا -جنود الدولة- أمامنا متحفزون في كل آن، وهؤلاء أبناؤنا -جنود الشعب- رابضون مسلحون في كل مكان، وهذه مدائننا تلبس في كل ليلة من ظلام الليل حدادًا يتعظ به كل من له عينان، فماذا نحن فاعلون غدًا إذا عاد جنودنا إلى ثكناتهم، ورجع أبناؤنا إلى بيوتهم؟ وأمست مدننا وقد استعادت حلتها وزينتها من الأضواء الساطعة، والمباهج الممتعة؟ أفننزع ثوب الحداد عن قلوبنا من أمام أعيننا؟! أننام غدا ملء جفوننا؟! أنأكل ملء بطوننا؟! أنضحك بملء أفواهنا؟ ليت شعري،، كيف يحق لنا ذلك؟ أيكون هذا هو مبلغ وفائنا لشهدائنا، ومبلغ حزننا على أيتامهم وأراملهم، ومدى مشاطرتنا لوجد أهلهم وذوي قرابتهم؟ بل هذا هو مظهر حميتنا لحرماتنا، ومنهج استعدادنا لأعدائنا؟

يا ويحنا لو غفلنا وعدونا غير غافل، يا ويحنا لو فترنا أو تكاسلنا وهو غير فاتر ولا متكاسل! إنه قد يتخذ هذه الهدنة فترة بين حربين، فلنتخذها نحن فترة بين دفاعين، فترة نستجمع فيها قوتنا، ونستكمل فيها أهبتنا، ونضاعف فيها إنتاجنا وإتقاننا في كل فرع من فروع نشاطنا حتى لا نكون عالة على غيرنا في صغير ولا كبير.

لتكن فترة نضع فيها سلاحنا، ولكن نجعله دائمًا تحت أعيننا وفي متناول أيدينا اتقاء لكل غدر وخيانة، واستعدادًا لكل مباغتة ومفاجأة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾[1]، نعم، لتكن فترة مراقبة ومرابطة، وتزود بكل قوة، ولا سيما زاد التقوى، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

(١) سورة النساء: ١٠٢.

تعبئة وتعبئة

كتب أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى قائد جيش المسلمين سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- كتابًا جاء فيه: «أما بعد: فإني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن الجيش أخوف عليهم من عدوهم، إنما ينصر المسلمون على عدوهم بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة».

ويمضي عمر في وصيته فيقول: «واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعده مفعولًا، اسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم والله المستعان».

هذه هي وصية عمر، يعبئ بها جنود الإسلام تعبئة روحية، بالإيمان والتقوى والصلاح والإصلاح، إلى جانب تعبئتهم المادية، بالزاد والعتاد والركاب والسلاح.

فما أحرى كل فرد منا أن يضع هذه الوصاة نصب عينيه في كل خطوة من خطواته، ليكون في سيرته وفي سريرته مثالًا حيًّا للجندي المؤمن، لا في البطولة والبسالة

فحسب، ولكن كذلك في الصدق والاستقامة والشرف والأمانة، وأداء فرائض الله في أوقاتها، والتزام شريعة الله في أدق حدودها.

ثم ما أجدر كل رب أسرة منا أن يتفقد هذا في ولده، كما يتفقد سلاحهم المادي أو أشد، فإنه كما قال عمر: من أقوى العدة على العدو، ومن أعظم المكيدة في الحرب، أو كما قال رب عمر: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، بل ما أجدرنا كلنا أن نتخذ من هذه الوصية نبراسًا نسير على ضوئه، وقانونًا نحرص كل الحرص على تنفيذه، ذلك أننا منذ وطئت العدو أرضنا أصبح كل فرد من أفراد الأمة وحدة عاملة من الجيش العامل، وأصبح لزامًا علينا كلنا -رجالًا ونساءً، شيبًا وشبابًا- أن نؤدي هذه الضريبة الكبرى التي يفرضها علينا ديننا.

فلنتواصى إذن فيما بيننا بما يتواصى به رجال الجيش فيما بينهم، لنعبئ قوانا إذن تعبئتين: تعبئة عسكرية بالتسلح المطرد والتدريب المتواصل، وتعبئة روحية بالإيمان القوي والعزم الأبي في تعظيم لشعائر الدين، واستمساك بأدبه السامي وخلقه القويم، ولتكن عنايتنا بهذه التعبئة الروحية أتم وأعم وألزم وأدوم، حتى نكون أهلًا لأن يمدنا الله بروح من عنده، وأن يؤيدنا بجند من جنده، فإنه ليس يصح في القياس أن نطمع في معونته ونصرته، وفينا من يجاهر بمعصيته ومخالفته.

---

(١) سورة البقرة: ١٩٧.

إن هذه الشعلة الوطنية المقدسة التي نراها اليوم تتوقد في قلوب المؤمنين لا ينبغي أن يطفئ نارها كاتب ماجن يبشر بالتحلل والإباحية، إن هذه الأنشودة الحماسية القوية التي هشت لها أرواح المخلصين لا ينبغي أن يفسد نغمتها داعية فاتن، يروج الإلحاد والوجودية، ألا فلتكن هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا نقطة تحول نجدد فيها إيماننا، ونطرد الغفلة عن قلوبنا.

ألا فلنبدأ في حياتنا صفحة جديدة نصوغ فيها مستقبلنا من جوهر مدنيتنا السامية الفاضلة، وننقي فيها مجتمعنا من زيف المدنيات الدخيلة الواغلة.

لنبدأ صفحة جديدة، نطهر فيها ألسنتنا وأقلامنا من كل مقالة فاجرة، وصحافتنا ومسارحنا من كل صورة داعرة، وأخلاقنا وعوائدنا من كل عادة مانعة فاترة، وعقولنا وقلوبنا من كل عقيدة ملحدة كافرة.

لنبدأ صفحة جديدة نوجه فيها شبابنا إلى حياة الشهامة والرجولة والجد والخشونة، والإيمان والفضيلة، وننتشل فيها أبناءنا من تيار السرف في الترف، والغلو في المجون، فإن أرواح شهدائنا تهتف بنا أن الأمر جد لا هزل، وأن الساعة ساعة الفصل.

نعم، لنبدأ صفحة جديدة نعتذر فيها إلى الله من ماضي تقصيرنا، ونقبل إليه أطهارًا أبرارًا، لينصرنا على أنفسنا وعدونا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: ١٤٧.

التحرير والتحرر والحرية

الحمد لله الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته، وأصلي وأسلم على من أرسله الله بالدين القويم والمنهج المستقيم، رحمة وهدى للعالمين، سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

هذه ثلاث درجات في سلم المجد متصاعدة بعضها فوق بعض: التحرير، والتحرر، والحرية، فالتحرير ليس هو الحرية، وإنما هو أول خطوة في طريقها، والتحرير: حركة معالجة ومحاولة لإنقاذ المستعبدين من ذل استعبادهم، والتحرر: حركة قبول ومطاوعة وتقدم للسير في ركب المنقذين والانتفاع بإرشادهم، أما الحرية: فما هي إلا النتيجة المنطقية لازدواج هاتين المقدمتين.

لنتصور إنسانًا سجينًا، قد أوصدت عليه الأبواب، وشدت عليه الأغلال والقيود، ولنفرض أن الله أرسل لهذا السجين جندًا من جنود رحمته، حطموا عنه القيود والأصفاد، وفتحوا له مغاليق الأبواب، حلم سعيد يتحقق! نعم، ولكنه ليس السعادة كلها، إنه فرصة للسعادة ولكنها فرصة ضائعة إذا لم يغتنمها صاحبها، نعم، ماذا يغني الأسير أن تحطم قيوده وأغلاله إذا لم ينشط من عقاله ولم ينهض قائمًا على قدميه؟! أي فائدة في أن تذلل له العقبات فلا يجتازها؟ وفي أن تفتح له أبواب الحياة الكريمة فلا يلجها؟! وفي أن تنحي أعداءه من طريقه ثم لا تنفك أشباحهم تملأ خياله وتزعج منامه وأحلامه؟!

أرأيت ذلك البطل السباح حين يلقي بنفسه في اليم، فيصارع الأمواج وتصارعه، ثم يمد كلتا يديه إلى الغريق لينتشله من مخالب الموت؟! أرأيت لو أبى الغريق أن يمد يده إلى منقذه أفلا تضيع هذه الجهود سدى؟!

التحرير مهمة القادة والمصلحين، والتحرر مهمة الشعب كله أفرادًا وجماعات مجاوبة لنداء مرشديه، ومصافحة لأيدي قواده ومنقذيه.

لا بد إذن لنجاح حركة التحرير أن تقوم بإزائها حركة للتحرر، نعم لا بد أن تتلاقى الحركتان، وأن يتعانق التياران، ليتولد من بينهما ضوء الحرية وحركتها ودفؤها وحرارتها، لكن هناك تحرر وتحرر.

هناك تحرر مادي نخلص به أوطاننا من عبودية الأعداء والغاصبين، وهناك تحرر نفساني نتطهر به من العبودية لأهوائنا، واسترقاق لشهواتنا ونزواتنا، ولعمري أن هذه العبودية لهي شر العبوديتين، وأن التحرر منها كفيل بأن يقودنا إلى الحرية الشاملة «بإذن الله»، فلنحاسب إذن أنفسنا، هل قمنا حق القيام بواجبنا؟

إنه ليحزنني ويحز في قلبي أن أرى في هذه الساعة الفاصلة فردًا واحدًا أو مجموعة واحدة قلت أو كثرت تفكر في تعويق القافلة عن سيرها، أو تحاول إلقاء الأشواك في طريقها، سواء أكان ذلك انتقامًا لما يسمونه الكرامة الشخصية، أم تأييدًا لما يدعونه المصلحة الحزبية.

أما الكرامة فقد ضربت لكم الأمثال على أنه لا يضيرها أن يصبح القائد المتبوع جنديًا تابعًا، ولا أن يصبح الجندي النابغ جنديًّا مجهولًا خاملًا، بل إن هذا التواضع قد يزيد صاحبه شرفا ورفعة، وأن هذا الخمول عند الناس يزيده نباهة عند الله.

وأما المصلحة الحزبية فلست أدري ماذا أقول؟ بل أكاد –والله– لا أفهم ما يقال الآن، والعدو على الأبواب،، أيرضى عاقل بأن يكون فينا شيع وأحزاب وهذه النار تطاردهم من خلف الأقبية والخيام؟! أفيبقى رجال الحي من داخلها في تنازع وخصام؟! إن الإنصاف كل الإنصاف، في أن نحرم الحزبية على أنفسنا تحريمًا مؤبدًا في وقت السلم والرخاء وفي الكفاح والجهاد على السواء.

هذا فيما أرى هو حكم المنطق السليم، وحكم الخلق القويم، وحكم الشرع الإلهي الحكيم، ذلك أن الحزبية قبل كل شيء وأد لأسمى مظاهر الحرية الفردية، وهدم لأول مبادئ الاستقلال الفكري، إنها تطلب من صاحبها أن يهدر من أجلها عقله وفهمه، وأن يسخر لها لسانه وقلمه، انتصارًا لكل قرار يصدره حزبه حقًّا كان في نظره أو باطلًا، فواعجبا! هل الذي يرضى هكذا بعبودية نفسه يكون أهلًا لتحرير وطنه؟

والحزبية بعد ذلك ضرب من تلك العصبيات الجاهلية التي أذهب الله عنا رجسها حين جعلنا أمة واحدة تنتصر للحق حيث كان ولو على لسان أعدائها، وتقاوم الظلم حيث كان ولو في صفوف أوليائها.

ولا يقولن قائل: إن هذا من التعاون الذي لا غنى عنه للمصالح الحيوية! فإن التعاون الذي يرضاه قانون الأخلاق إنما هو التعاون والتقوى والحق والعدل، ألا وإن الحق ليس وقفًا على شخص ولا على فئة أو طائفة، فمن كانت شيعته أحب إليه من الله وشرعته فليس من الإيمان ولا من الخلق في شيء: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[1].

(١) سورة التوبة: ٢٤.

أسباب القوة المعنوية

الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وأفضل الصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الأكرمين، وبعد:

قال الله تعالى وهو أحكم القائلين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[1]، هذه حلقة من سلسلة الآداب والقوانين التي سنها كتاب الله تنظيمًا لأساليب الحرب، وتحديدا لأهدافها.

وللحرب نظام عرفه الإسلام لم يكن معروفًا في سالف الملل والدول، ولا تزال أحدث التشريعات في أرقى الأمم المتحضرة متخلفة عنه بمراحل، يعرف ذلك كل من بحث ودرس، وقايس ووازن.

الحرب في الإسلام ليست انطلاقًا لغريزة التشفي والانتقام، ولا انبعاثة لشهوة التملك والاستعباد، وإنما هي إجراء وقائي ضيق الحدود تفرضه الضرورة القصوى، وتقوده الحكمة والعدل الشامل، وتحوطه الرأفة والرحمة من كل جانب، حتى إن الحروب كلها لو وصفت بأنها نكبة وبلاء على البشرية، وأنها انحدار

---

(١) سورة الأنفال: ٤٥ – ٤٧.

بالإنسان إلى مستوى الهمجية والوحشية ما ساغ لعاقل منصف أن يصف الحروب في الإسلام إلا بما توصف به الجراحة الدقيقة والرقيقة حين تعمل مبضعها في أضيق رقعة من جسم المريض فتستأصل منه الجراثيم التي تفتك به استبقاءً لحياته، واستعادة لصحته وقوته.

الحرب في الإسلام عمل إنساني نبيل لا يقصد به جر المغانم للمحاربين، ولكن دفع المظالم عن المستضعفين، كما أنه لا يبغي سلب الحريات ولا تقييدها، بل التمكين للحريات كلها في الأفكار والعقائد والعبادات والشعائر، وأقول في كلمة واحدة: إن الحرب في الإسلام ليست من معدن البغي والعدوان، ولكنها من معدن التضحية بالوقوف في وجه العدوان.

لا جرم أن كان أول ما يطالعنا من الوصايا القرآنية في هذه الآية الكريمة كلمة لها مغزاها، ولها دلالتها على تلك الأهداف البريئة، فالقرآن لا يقول لنا: (إذا لقيتم فئة فاندفعوا وانتشروا وجوسوا خلال الديار)، كلا! ولكنه يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ ﴾ ومعنى هذا أن أعداء الإسلام هم الذين شأنهم أن يهاجموا الإسلام، وأن يحاولوا استباحة حرياته، وأن من شأن هجومهم الجارف العنيف أن قد يزلزل أقدام المسلمين، وقد يضطرهم إلى الفرار من وجه عدوهم، فأمر المؤمنين أن يقفوا ثابتي الأقدام، رابطي الجأش، ولو أدى ثباتهم إلى أن يجودوا بأرواحهم في سبيل مثلهم العليا: علو كلمة الله، وعزة المؤمنين به.

ولما كان ثبات القلوب والأقدام في وقت الخطر مطلبًا من أشق المطالب، وفيه ما فيه من المغالبة للطبائع والغرائز، كان لا بد للوصول إليه من عون إلهي تنزل به السكينة في قلوب المؤمنين، وتثبت به أقدامهم، ولذلك جاءت الوصية الثانية مرشدة إلى هذه الوسيلة الناجحة: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، كأنه قيل: إذا أنتم لم يسعفكم حولكم وقوتكم، فالجئوا إلى حول الله وقوته، اسموا بأرواحكم إلى الأفق، وارفعوا أكفكم إلى مدد السماء، هنالك يلتقي جهد العبد وتأييد الرب، وإن حياة المؤمنين كلها تقوم على هاتين الدعامتين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم تتلاحق الوصايا والإرشادات القرآنية بعد ذلك: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فالوصية الثالثة: هي طاعة الله، ولئن كانت طاعة الله حقًا في كل موطن فإن الجهاد أحق وألزم، فالجندي الذي يعصى الله في ميدان القتال مثله كمثل المحرم الذي يرتكب الإثم في جوف الحرم، أفلا يستحي بعد ذلك أن يمد يده التي حارب بها ربه، فيطلب بها معونته ونصرته؟

أما الوصيتان الرابعة والخامسة، فإحداهما طاعة الرسول -ويدخل في حكمها طاعة كل قيادة رشيدة- والأخرى ترابط الجيش وتماسكه كتلة واحدة من وراء قائده، وهاتان الخصلتان هما ملاك النصر وقوامه، ومحور النجاح ومداره،، فأما طاعة الرسول والقائد -وكذلك طاعة كل رئيس وإمام في غير معصية الله- فتلك هي

روح النظام في كل جماعة، قلت أو كثرت، وأما تعاون المجاهدين وتساندهم فهو معنى الوحدة في كل جسم، كبر أو صغر، وإذا كان النظام والوحدة واجبين في كل حال فهما في حالات الحرب أوجب؛ لأن انشقاقًا يحدث بين الرأس والأعضاء، أو بين الأعضاء بعضهم وبعض، إنما هو ثغرة ينفذ منها العدو في جسم الأمة فيمزق وحدتها ويبدد قوتها، ويحول بينها وبين أمانيها، وذلك هو ما عبر عنه القرآن الكريم بالفشل وذهاب الريح.

على أن القرآن حين يدعونا إلى الطاعة الكلية، وإلى التعاون الإجماعي لا يريد بذلك أن يسلبنا حرية التفكير والمعارضة، ولا أن يحول بيننا وبين تبادل الرأي والنصيحة، فإن الحرية والشورى في الإسلام عزيمتان لا رخصة فيهما بحال، وقاعدتان لا استثناء في حرب ولا سلم منهما، ولكنه متى استقر الرأي الغالب على خلاف ما يهوى البعض في الجزئيات والفروع التي ليس فيها ضرر بيِّن يصيب المجموع، وجب على كل فرد أن يصبر على الهنات والهينات، وأن يضحي بشيء من مصالحه الجزئية، وينزل عن تنفيذ فكرته الشخصية، وأن يسير في الصف قدمة إلى الغاية الكبرى، فذلك هو محك إخلاص المخلصين، ومعيار النبل في مقاصد العاملين، ألا وإن أسباب النزاع والشكوى في الأزمات والملمات لهو أول أنواع الصبر الذي جاءت به الوصية السادسة في قول أحكم الحاكمين: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أما الوصية السابعة والأخيرة ففيها يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾، فأمر المجاهدين أن يطهروا نفوسهم من شوائب الأغراض العاجلة الزائلة، بعد أن ربط صفوفهم، وأحكم قيادتهم، وقوى عزائمهم في الآيتين السابقتين.

هذه هي الوصايا السبع، فصل القرآن فيها أسباب القوة المعنوية في الجيش: قوة التجرد والطهر، وقوة التجلد والصبر، وقوة الاتحاد، وقوة النظام، وقوة التدين، وقوة الإيمان والأمل، وقوة الصلابة في العمل، وسوف ينظم القرآن هذه الأسباب كلها في آية جامعة طوى فيها القوة المادية طيًّا، ولم يبرز منها إلا حرفة واحدة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[1]، فهل تنبه المسلمون إلى مغزى هذا التفاوت في درجة عناية القرآن بهاتين الناحيتين؟ ثلاث آيات كاملة في صدر الحديث للحث على الأخذ بأسباب القوة المعنوية، وشطر آية واحدة في عَجُز الحديث لتنبيه على القوة المادية.

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

دعوة الى الوفاء بحق المجاهدين

الحمد لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين، وقيوم السموات والأراضين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وحجة الله على الخلائق أجمعين، وعلى آله وأصحابه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

أيها المواطن الكريم: لقد جربناك في مواطن كثيرة، وعرفنا لك فيها مواقفك النبيلة، عرفناك حين تستمع إلى صرخة الاستغاثة، فإذا أنت شهامة ونجدة، وعرفناك حين تنظر إلى قطرات الدموع البائسة، فإذا قلبك يسيل حنانًا ورحمة، عهدناك ترق وترثي للبنوة اليتيمة، وللزوجة المرملة، وللطفولة المضيعة، وللشيخوخة العاجزة، عهدناك تأسى وتبتئس لمنظر الأبدان المقرورة العارية، والأقدام المقروحة الحافية، والأيدي المحرومة الكادحة، ولكل ذي قلب كسير، ولكل ذي حظ عاثر.

فهل أدلك اليوم على فئة هي أحق بعطفك، وأولى برفدك وبرك؟ أولئك إخوان لك، أولئك هم أبطالنا الذين هبوا للدفاع عن أوطاننا واضعين أرواحهم في أكفهم، مسترخصين الموت ثمنًا لوطنهم وشرفهم: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾[1]، فأما الذين قضوا نحبهم في ميدان الجهاد فقد انهد بفقدهم ركن شديد من بناء أسرتهم، وتغيرت من بعدهم معالم

(١) سورة الأحزاب: ٢٣.

الحياة في بيوتهم، وخلفوا فراغًا رهيبًا في نفوس أزواجهم وأولادهم، أليس من حق هذه الأسرة الثاكلة أن تحس أن حولها أجنحة من الرحمة تحف بها، وسواعد من العزيمة تحمل عنها بعض عبئها؟

أولئك الشهداء الأبرار، لم يضنوا على الوطن بنفوسهم، فكيف يضن الوطن عليهم برعاية أبنائهم؟ ألا فليذكر الغافلون والمتغافلون والكانزون والمبذرون أن ظروف الزمان طوع أيديهم، ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾[1].

دعني أسرد لك أمثلة مما تفعله الأمم الحية، والدول القوية، في تكريم أبناء شهدائها، وإكرام العاجزين والمغرورين من جنودها:

فأبناء الشهداء في بلاد الغرب تتبناهم أوطانهم تبنيًا: تحمل الدولة عنهم كل نفقات التعلم والعلاج طوال حياتهم، ويقوم الشعب في الوقت نفسه بالترفيه عنهم، وإدخال السرور على نفوسهم في كل مناسبة؛ فترى الطلاب في مدارسهم، والعمال في مصانعهم، وأهل كل بيئة فيما بينهم يتنافسون في جمع الهدايا والمنح المتنوعة، وتقديمها في المناسبات لأبناء الشهداء من زملائهم.

أما الجنود الذين يعودون إليهم من ميدان القتال حاملين أوسمة من الجروح والعاهات، فأول ما تقدمه الدولة لهم أن تتولى علاجهم بكل رفق وعناية، ثم تسد

---

(١) سورة النساء: ٩.

عنهم ثمن الأجهزة الصناعية التي يعوضون بها ما فقدوه من أعضائهم، ثم توالي عطفها عليهم بعد ذلك بالوسائل الايجابية الملموسة، فتجعل لهم حق الأفضلية في اللحاق ببعض الوظائف والأعمال التي تناسبهم، وتمنحهم التسهيلات العظيمة في الانتفاع بطرق المواصلات فتجعل لهم حق الأسبقية في الركوب، وتحتفظ لهم في كل مركبة بمقاعد مرقومة، متى حضروا ولو في أثناء الرحلة كانوا أحق بها ممن سبق إلى الجلوس فيها، وتضع عنهم نصف الأجرة أو ثلاثة أرباعها تبعا لجسامة الضرر الذي لحقهم، وفوق ذلك كله ترتب لهم معاشًا منظمًا يتقاضونه مدى حياتهم، ويئول نصفه إلى ورثتهم بعد موتهم.

هذه أمثلة مما شاهدناه بأنفسنا في أوربا، لكن ما لنا نذهب بعيدًا في اقتباس الأمثال، وبين أيدينا من الهدي النبوي والتوجيه القرآني ما هو أكرم مغزى وأشرف دلالة؟

فلقد بلغ من عناية الرسول الكريم بأبناء الشهداء من أصحابه أنه جعل ابن القائد الشهيد يتقلد منصب القيادة العليا من بعد أبيه، هذا أسامة بن زيد يصبح قائدًا لجيش تبوك لما استشهد أبوه في جيش مؤتة، حتى إن كبار الصحابة على جلالة قدرهم كانوا يمشون في ركاب أسامة على حداثة سنه، فيا له من تكريم ليس وراءه تكريم!

ولقد بلغ من مواساة الرسول لأرامل الشهداء من أصحابه أنه لم يكتف بإغداق المبرات عليهن من بعيد، بل آواهن إلى كنفه، ووصل حبلهن بحبله، ومنحهن

شرف عشرته الزوجية، فكان ذلك لهن نعم السلوان، ونعم الإحسان في وقت واحد.

ولقد بلغ من اهتمام القرآن المجيد بأمر المجاهدين العاجزين عن كسب أرزاقهم أنه لم يكتف بعدهم مع عامة المجاهدين في قانون الأصناف الثمانية الذين يساهمون في موارد الدولة، بل اختصهم بحديث مستقل، ودعا إلى رعايتهم في نداء منفرد، لا نجد أعظم منه إشادة بشمائلهم ولا أشد منه تحريضًا على الذين أحصروا في سبيل الله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[1].

(١) سورة البقرة: ٢٧٣.

فهرس المحتويات

افتتاحية ٥
تصدير الطبعة الأولى..... ١٩
١- نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم..... ٢٥
٢- بقية نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم ٣١
رسالة الإسلام وسر نجاحها ٤١
المجتمع الصالح وكيف يتكون؟..... ٤٦
بين العدل والفضل ٥١
متى يكون العدل فضيلة؟ ٥٧
أزمة الصدق ٦٣
الإسلام وكرامة الفرد..... ٦٩
ما حقيقة تلك الكرامة؟ ٧٠
فاكهة المجالس ٧٤
الاسلام والرق ٧٩
الرسول في القرآن..... ٨٧
نشأة الرسول ٩٤
الهجرة النبوية بداية عهد جديد للإنسانية ٩٩
كيف هاجر الرسول؟ ١٠٤
هجرة الرسول في القرآن ١١٠
يوم الهجرة النبوية ١١٦
مواطن العبرة من غزوة أحد..... ١٢١
إيمان ورجولة ووفاء ١٢٧

تحويل القبلة ١٣٢
التفاني في العقيدة ١٣٨
مكة وطن روحي لجميع المسلمين ١٤٥
الحلقة المفقودة في أنظمتنا الاجتماعية ١٥١
استقبال رمضان «من وحي الهلال» ١٥٦
رمضان شهر الهدى والرحمة ١٦١
مغزى شريعة الصيام ١٦٦
الجانب الاجتماعي في فريضة الصيام ١٧٢
ليلة القدر ١٧٧
للصائم فرحتان ١٨٣
وداع رمضان ١٨٧
المعاني الانسانية في عيد الفطر ١٩٢
الأعياد الإسلامية «مقاصدها وآدابها» ١٩٦
الحج ووحدة الشعوب الإسلامية ٢٠١
الجوانب الاجتماعية في الحج ٢٠٧
يوم عرفة ٢١٤
إلى روضة الرسول ٢١٩
وصايا القرآن الكريم ٢٢٤
سلاحان جديدان في أيدي الأعداء ٢٢٩
ثمرة الجهاد ٢٣٢
فترة لا فتور ٢٣٦
تعبئة وتعبئة ٢٣٩

التحرير والتحرر والحرية..... ٢٤٣
أسباب القوة المعنوية ٢٤٧
دعوة الى الوفاء بحق المجاهدين ٢٥٢
فهرس المحتويات ٢٥٧

الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء